الباب الأول

الاتجاهات الفكرية

الفصل الأول : الموضوعات الشعرية
الفصل الثاني : المعاني الشعرية
الفصل الثالث : الآثار الثقافية

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

الموضوعات الشعرية

تراوحت موضوعات الشعر الأندلسي بين المحافظة والتجديد ، فشاعت موضوعات الفخر ، والحماسة ، والمديح التقليدي ، والغزل العذري ، وغيرها في شعر المحافظين ، في حين طغت في شعر المحدثين موضوعات الوصف والطبيعة والمجون ، والخمر ، والغزل بالغلمان ، وموضوعات جزئية أخرى . واتسمت هذه الموضوعات في أشعار الأندلسيين بسمات خاصة أفردتها ـ على نحو ما ـ عن نظائرها المشرقية تبدّت في إكثارهم من موضوع بعينه ، وفي إضفاء لمسات خاصة على موضوع آخر ، وفي ابتداع موضوعات جديدة أساسية وجزئية استجابة لظروفهم الخاصة وواقعهم المتفرد .

موضوعات المذهب القديم

١ - الفخر والحماسة

يعد الفخر والحماسة من موضوعات الشعر العربي التقليدي البارزة ، وقد برز في العصور الأندلسية المتقدمة حين كانت الظروف الاجتماعية والسياسية القائمة على الصراع بين الفئات الأندلسية المختلفة من عرب ، ومولدين ، وعرب مضريين ويمنيين كما كانت الثورات الداخلية تستدعي مثل هذه

obeikandl.com

الموضوعات . ومرّت بنا أشعار حماسية في وصف تلك المعارك الدائرة والفخر بالبطولة وشدة البأس . وامتازت هذه الأشعار بالطابع البدوي في الروح ، والمعاني والصور ، والألفاظ . من ذلك هذه الأبيات لسعيد بن جودي التي تندرج ضمن النقائض الشعرية التي قيلت في فتنة العرب والمولدين في إلبيرة بغرناطة[1] يفخر فيها بمآثر قومه العرب مشيداً بنصرهم المؤزر على خصومهم ، وتتعالى فيها معاني البسالة ، والظفر بالأعداء ، وتوعدهم ، وغيرها مما كان يردّده شعراء النقائض المشارقة . يقول سعيد :

فأكثرُ قتلِنَا لهم حلالٌ ... بما ارتكبوه ظُلْمًا واسْتَحَلُّوا
رواقُ المجدِ مضروبٌ علينا ... منيعُ الجانبَيْن فما يزلُّ
ورثْنَا المجدَ عن آباءِ صدقٍ ... وإرثكمُ بني العبدانِ ذلُّ
وأخضَعْنَا رقابَكُمُ فذلّتْ ... فليستْ ماحييتمْ تَستقلُّ[2]

وبرزت في الاتجاه المحافظ أشعار في الفخر بالمثل الخلقية العربية الأصيلة كالعفة ، والحلم ، واحتمال الخطوب ، وثبات الجنان ، والإباء ، والتسامي على نحو تلتقي فيه بمثل الفروسية الجاهلية . يقول ابن شهيد :

وما ألانَ قَنَاتي غَمْزُ حادثةٍ ... ولا استخفَّ بحلمي قطُّ إنسانُ
أمضي على الهولِ قدْمًا لايُنَهْنِهُني ... وأنْثني لِسَفيهي وهوَ غَضْبَانُ
إنّ الكريمَ إذا نالَتْهُ مَخْمَصَةٌ ... أبْدَى إلى الناسِ شِبْعًا وهو طيّانُ
يخفي الضلوعَ على مثلِ اللّظَى حرقاً ... والوجهُ غمرٌ بماءِ البِشْرِ ملآن

---

(١) انظر : أحداث هذه الفتنة في ابن حيان ـ المقتبس ، نشر ملشورم أنطونية ، ٥٤-٦٧ ، وابن الأبار . الحلة السيراء ١/١٤٧-١٦٠ .

(٢) سعيد بن جودي السعدي الإلبيري الأندلسي دكتور محمد رضوان الداية ص ٩٧، ٩٨ . وانظر : أشعار هذه المعارك في المقتبس نسخة ملشورم أنطونية ـ الجزء الخاص بالأمير عبد الله ص٥٦، ٦٦ و ٨٥ .

بالعلم يفخرُ يــومَ الــرّوعِ حاملُــهُ وبالعفافِ غــداةَ الجمــعِ يــزدانُ[1]

وتتوالى ـ على امتداد التاريخ الأندلسي ـ أشعار في التغني بقيم النبل والكرم مع تفاوت في نسبة هذه الأشعار بين العصور التاريخية الأندلسية ، فإذا كانت الصراعات السياسية في العصور المتقدمة ـ فضلاً عن قرب العهد بالشعر المشرقي التقليدي والألفة له ـ فرضا وفرة وتوفراً على ذلك الفن فإن ميل المجتمع الأندلسي إلى الاستقرار في عصوره التالية وشيوع حياة الترف والتحضر جعلا هذا الفن ينكمش قليلاً ، ولا سيما في جانبه المتصل بالحماسة والدعوة إلى الثأر ، وإن استمر الترنم بالخلق الكريم والسجايا السامية بين الشعراء بنسب متفاوتة ، وجنح بعضهم إلى الاعتداد بمواهبه العقلية وتحصيله العلمي . يقول ابن حزم :

أنا الشمسُ في جــوّ العلــومِ مــنيرة ولكنّ عيبي أنّ مَطْلَعــيَ الغَــرْبُ [2]

ولكنّ الحروب التي اضطرم أوارها بين المسلمين والنصارى على امتداد تاريخ الأندلس ـ ولا سيما في عصورها المتأخرة ـ أذكت حماسة بعض الشعراء لإنشاد أشعار حماسية في وصف مجالدة العدو ، والتغني بالنصر عليه مؤتمّين بجهاد الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام للكفار وتحطيم بيعهم . يقول حاكم غرناطة يوسف الثالث مستلهماً هذه الروح الجهادية التي تصلنا بالشعر الجهادي في عصر صدر الإسلام ، وذلك بعيد نصره على القشتاليين في بعض الوقائع :

ولــــمّا وثقْنَــا بــالنبيّ المُجْتَبَــى في نقضِــهِ النبــويّ أو إبرامِــهِ
والعــزم مــن أوصــافنا أهــلاً بــه مــن قــائمٍ بــالحزمِ حــقَّ قيامِــهِ
يــأتمُّ في حــربِ الصــليبِ وحزبِــهِ بشــفيعِ كــلِّ موحِّــدٍ وإمامِــهِ

---

(١) ديوانه ، تحقيق : يعقوب زكي . راجعه دكتور محمود علي مكي ـ دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ـ القاهرة ، بلا تاريخ ، ص ١٦١، ١٦٢ .
(٢) المقري . نفح الطيب ٢/٢٦٠ .

مستأصـــل بيَـــعَ العـــداةِ ومهـــتمٍ ماصانَ فيهـــا الكفـــرُ مـــن أصـــنامه
واللهُ جـــــلَّ جلالُـــــهُ متكفِّـــــلٌ بالنصرِ والمعهـــودِ مـــن إنعامِـــه [1]

وحلّق العديد من الشعراء في هذه الأجواء الحماسية على سبيل التقليد الفني ومجاراة العرف الشعري . وتلك أبيات للسان الدين بن الخطيب يردّد فيها مآثر قومه السلمانيين اليمنيين مقدِّماً لها ـ انسياقاً مع نزوعه الديني ـ بالاعتذار عن خوضه في هذا الفن بكونه تقليداً شعريًّا دأب الشعراء على اتخاذه إثباتاً للموهبة والقدرة . يقول : « ومن الفخر والتأبين قلتُ متشبعاً ، علم الله ، بما لاأملك ، وإنما هي أغراض الشعراء نتفنّن فيها ، والله وليّ التجاوز عن المتجاوز :

بني ســـلمانَ سَـــلْ عنـــهم ســـتدري على الأجيـــال مِـــنْهُم كـــلَّ جلَّـــهْ
يـــمانـــــية المناســـبِ والمواضِـــي مفاخرُهـــــا رســـــومٌ مُسْـــــتَقِلَّهْ
فمِـــنْ نـــارِ الـــوغى في كـــلّ وادٍ ومن نارِ القِـــرى في كـــل حِلّـــهْ[2]

٢- الغزل :

برزت ملامح طريقة العرب في شعر الغزل الأندلسي متمثلة بالنزوع العذري الذي جنح إليه كثير من الشعراء ، وبالطابع البدوي الذي وسم أجواء هذا الغزل على مختلف العصور الأندلسية .

أما النزوع العذري فتبدّى في معاني الشكوى ، والتذلل ، والعفة ، والإعلاء من شأن المرأة وإجلالها بعيداً عن الإفحاش والتهتك ، فها هو ذا الحكم الربضي يتذلل للمحبوبة متناسياً سطوة الحاكم وبأسه . يقول :

ظـــلَّ مِـــنْ فَـــرْطِ حبِّـــهِ مَمْلُوكـــاً ولقـــدْ كـــانَ قبـــلَ ذاكَ مليكَـــا

---

(١) ديوان ملك غرناطة يوسف الثالث ، تحقيق : عبد الله كنون ، تطوان معهد مولاي الحسن ، ١٩٥٨م ، ص١٥٦، ١٥٧ .
(٢) ديوانه ٥٢٣/٢

يجعلُ الخَـدَّ واضِـعَاً تحـتَ تُـرْبٍ للّـذي يرتضـي الحريـرَ أَريكَـا
هكـذا يحسُـنُ التـذلُّلُ للحُـرِّ إذا كـانَ في الهـوى مَمْلُوكَـا [1]

ويقول الطرطوشي مصوراً هذا الوجد الصوفي بالمحبوبة الذي يحمل المحبّ على ترقب آثارها واستشراف قربها في مظاهر الطبيعة ، وقوافل المسافرين والمارّة في الطرقات على نحو يذكّرنا بمسلك الشعراء العذريين المشارقة . يقول :

أُقَلِّـبُ طَرْفِـي في السـماءِ تَـرَدُّدًا لعلّي أرى النجمَ الذي أنـتَ تَنْظُـرُ
وأسْتَعْرِضُ الرُّكْبانَ مِنْ كـلِّ وجهـةٍ لعلّي بِمَنْ قدْ شـمَّ عَرْفَـكَ أظْفَـرُ
وأسـتقبلُ الأرواحَ عنـدَ هُبُوبِهَـا لعـلّ نسـيمَ الـريحِ عنـكَ يخبِّـرُ
وألمحُ مَنْ أَلْقَـاهُ مـن غـيرِ حاجـةٍ عسى لمحةٌ من نورِ وجهِـكَ تُسْـفِرُ [2]

ويبلغ الوجد بابن هند الداني بعيد فراقه لزوجه مبلغاً بعيداً ، فيسفح دموع الشوق ، ويزجي مشاعر الهيبة في تدفق عاطفي ، مطلقاً مشاعره من إسار التقاليد التي لم تكن تسوغ للشاعر العربي أن يصور عاطفته إزاء زوجه . مما يمنح هذا المنحى الشعري في الأندلس قيمة خاصة . يقول وقد طلقت عليه امرأته :

أبديتُ سرّيَ مُـذْ كَتَمْـتُ سُـراكِ وعصَيْتُ صبري مُذ أطعـتُ هَـوَاكِ
ونَثَرْتُ أسـلاكَ الـدُّموعِ معرّضـاً أنّـي بحيـثُ سـلكتِ لا أسْـلاَكِ
رفْقًـا بقلـبٍ أنـتِ في سـودائِه فهناكَ أسْـكَنَكِ الهـوى فهنـاكِ [3]

وأما الطابع البدوي فقد حلّق الغزل الأندلسي في أجوائه طويلاً ، وتغنى بمجاليه تعبيراً عن الحنين الأندلسي العارم إلى المشرق الإسلامي ، ومظهراً من

---

(١) ابن عذاري المراكشي ، البيان المغرب في أخبار المغرب. ١١٩/٢، ١٢٠ وانظر أيضاً: بتغيير يسير الحلة السيراء ٤٩/١ .
(٢) نفح الطيب ٨٥/٢، ٨٦ . (٣) الذخيرة ٢/٣ : ٨٩٧ .

مظاهر الارتباط الدائم به ، وانعكاساً للثقافة العربية الأصيلة في شعره . ومن ثَمَّ أنشد الأندلسي شعراً غزليًّا ذا نفحات بدوية يقف فيه الشاعر بالطلل الدارس متملّياً عناصره من رماد ، ونؤي ، ويأنس بالطيف الساري مصوراً أحوال الحب الملتاع ، مستخدماً صور البداوة وتعبيراتها المعهودة . يقول عبد الرحمن ابن مقانا الأشبوني مترنماً بهذه المجالي :

لِمَنْ طللٌ دارسٌ باللِّوى ... كحاشيةِ البُرْدِ أو كالرِّدَا
رمادٌ ونؤيٌ ككُحْلِ العروسِ ... ورسمٌ كَجِسْمٍ بَرَاهُ الهوى
غدا موسماً لوفود البلى ... وراح مراحاً لسربِ المَهَا
عجبْتُ لِطَيْفِ خيالٍ سَرَى ... من السِّدْرِ أنّى إلَيَّ اهتَدَى[1]

وتطل العناصر البدوية في أبيات أبي بكر بن طفيل مقرونة بمشاعر اللوعة والوجد العذري مؤكدة استمرار ارتباط الذوق الأندلسي بهذه العناصر حتى في أشد عصور الأندلس تحضراً . يقول ابن طفيل :

ألَمَّتْ وقدْ هامَ المشيحُ وهوَّمَا ... وأسْرَتْ إلى وادي العقيقِ منَ الحِمَى
وجرّت على ذيلِ المُحَصّبِ ذيلُهَا ... فما زالَ ذاكَ التُّرْبُ نَهبَا مقسَّما
تقسّمهُ أيدي التّجَارِ لطيمة ... ويحملُهُ الداري أيّانَ يمَّمَا[2]
ولمَّا رأَتْ أنْ لا ظلامَ يكنُّهَا ... وأنّ سُراهَا فيه لنْ يَتكَتَّمَا
أزاحَتْ غمامَ العصبِ عن حُرِّ وجهِهَا ... وألقَتْ شعاعَاً يدهشُ المتوسِّمَا [3]

ويصور لسان الدين الخطيب هذا الاندفاع الأندلسي المحموم نحو مشارف البداوة المشرقية ، واتخاذها رموزاً للإفصاح عن أعماق الوجدان الأندلسي حتى أواخر عهوده . يقول :

---

(١) الذخيرة ٢/٢ : ٧٨٨ .
(٢) الداريّ : العطار . منسوب إلى دارين فرضة بالبحرين .
(٣) المغرب ٨٦/٢ والمراكشي . المعجب ٣١٢، ٣١٣ مع تغيير بسيط .

لِيَ اللهُ كَمْ أَهْـذِي بنجـدٍ وحـاجرٍ وأكْنِي بدعدٍ في غرَامِيَ أو سُـعْدَى[1]

وعني كثير من الشعراء بتمجيد الجو البدوي المشرقي والتغني بمعالمه ، والتلذذ بذكر أسماء الأماكن الحجازية تعبيراً عن الحنين الأندلسي إلى هذه المغاني المشرقية ، ومحاكاة لمسلك مشرقي توفّر على هذا الفن . إذ احتذى بعضُ الأندلسيين نهج الشريف الرضي ومهيار في الغزل في تغنيهم بمرابع الحجاز وحنينهم إليها ، وبرز ابن خفاجة في هذا المنحى الشعري ، فذكر صراحة اقتفاءه آثار الشريف ومهيار فيه ، وعلّل ذكر أسماء هذه المرابع باتخاذها رموزاً لأماكن أخرى وأشخاص شغف بهم . يقول : ((وأما أسماء تلك البقاع ، وما انقسمت إليه من صفة نجد أو قاع فإنما جاء بها على أنها خيالات تُنصب ومثالات تُضرب تدلُّ على مايجري مجراها من غير أن يُصرَّح بذكراها ، توسعاً في الكلام ، يُكتفى بها دلالةً عليها وعبارة ، ويُستحسن إيماءة إليها وإشارة))[2]. فها هو ذا يزجي تحيته وأشواقه إلى مغاني الحجاز ونسائها ورباها ومطاياها يقول :

ألا ليتَ أنفاسَ الرياحِ النَّوَاسِمِ يحيِّينَ عنّي الواضحاتِ المَبَاسِمِ
ويَرْمِينَ أكنافَ العقيقِ بنظرةٍ تردَّدُ في تلكَ الرُّبَى والمَعَالِمِ
ويلثمْنَ مابينَ الكثيبِ إلى الحِمَى مواطئَ أخفافِ المطيِّ الرواسِمِ[3]

وسرت العناية بهذا المنحى الشعري إلى الموشح ، فنزع بعض الوشاحين إلى الترنم بذكر الأماكن الحجازية ، وبكاء المنازل الدارسة ، ومعاناة الأشواق العارمة . يقول ابن الفضل في الحِمى والكثيب :

عرِّج بالحمى واسأل بالكثيبْ
عنهم أينما

---

(١) ديوانه ١/٣٤٧ .
(٢) ديوانه ص ٢٠٤ .
(٣) ديوانه ص ٢٥٨ .

هـــــــــذي الأربـــــــــعُ
منـــــــــهم بلقَـــــــــعُ
أيـــــــــن الأدمـــــــــعُ
ضـــــــــرِّجْها دمـــــــــا وقـــــــــم بالنحيـــــــــبْ
نُقِـــــــــمْ مأتـــــــــما[1]

٣- المديح

لم يتمثل الشاعر الأندلسي هذه العناصر البدوية في فن الغزل وحسب ، بل سرت في أغراض أخرى ، فالتزم شعراء المذهب القديم المقدمات الطللية في مدائحهم ، واستلهموا أجواء البداوة في معاني المديح وتعبيراته وصوره . وتتبدى هذه السمات في مدائح العصور الأندلسية المبكرة على نحو خاص حين كانت الفتن الداخلية والنزاعات الخارجية مشتعلة ، وكان الناس قريبي عهد بالبداوة ، شديدي التأثر بالنماذج المشرقية ، فطغت ثقافة الشاعر الأندلسي التقليدية على مدائحه التي استهلها بالمقدمة التقليدية ووصف الرحلة ، واستخدم ألفاظاً جزلة وتعابير وصوراً بدوية . من ذلك قول أبي المخشي عاصم بن زيد في قصيدة مدح بها الأمير عبد الرحمن الداخل يصف الرحلة إلى الممدوح :

امْتَطَيْنَاهَـــا سِـــمَانًا بُـــدْنا فتَرَكْنَاهَـــا نِضَـــاءً بالفَنَـــا
قاصِـــدًا خَـــيرَ منـــافٍ كلِّهـــا ومنافٌ خيرُ مَـــنْ فـــوقَ الثَّـــرَى[2]

ومن ذلك قول عباس بن مرداس يمجّد بعض انتصارات الأمير محمد ،

---

(١) غازي . دكتور سيد . ديوان الموشحات الأندلسية ، المجلد الثاني ، مكتبة المعارف بالإسكندرية ص ١٤٦ .

(٢) ابن الخطيب ، لسان الدين ، الإحاطة في أخبار غرناطة ، الشركة المصرية للطباعة والنشر . القاهرة ، ١٩٧٨م ، ٢٣٤/٤ .

ويمدح بسالته ، ويصف المعركة مستخدماً الصور البدوية التقليدية ، مشيعاً الجو الحماسي في تضاعيف أبياته . يقول :

ومُؤْتَلِفِ الأصواتِ مختلفِ الزَّحْفِ ... لهومِ الفَلاَ عَبْلِ القبائلِ مُلْتَفِّ

إذا أومضَتْ فيهِ الصوارمُ خِلْتَهَا ... بروقاً تراءى في الحمامِ وتَسْتَخْفِي

وإنْ طحنَتْ أركانَهَا كانَ قطبُهَا ... حِجَا ملكٍ نَدْبٍ شمائلُه عفٍّ (١)

ويمتد هذا الطابع البدوي العام للمديح بامتداد الشعر الأندلسي ـ على تفاوت في نِسَبِه ـ فيقوى في عصر الطوائف والمرابطين ؛ إذ جنح كثير من الشعراء المداحين إلى استهلال قصائدهم بمقدمة بدوية تموج بحديث الطلل ، أو الرحلة الصحراوية ، أو شكوى الحمام . فهذا علي بن حصن شاعر المعتضد ينسج في مقدمة إحدى مدائحه جوًّا بدويًّا خالصاً تتشابك خيوطه المكونة من شكوى الحمام ، ووخد النوق ، والبيد الملتهبة ، والسراب المضطرب ، وسرى الليل . جوًّا يلوح أنّ الذوق الأندلسي كان يؤثره ويلح عليه في هذا العهد(٢) . يقول :

ماهاجَ بَرْحَ الهوى إلا مُطوّقةٌ ... كأنَّهَا مِنْ نُحُولٍ شفَّها جيمُ

أيَا حمامةَ ذا الوادي أثَرتِ جوًى ... تنقضُّ مُنقدَّةً منها الحيازيمُ

نُغشي بهنَّ بناتِ الوَخْدِ سابحةً ... تخْدي وقدْ همَّ بالسُّمّارِ تَهْويمُ

يُنضي سُرى الليلِ تأويبُ النهارِ ولِلْـ ... ـهَجيرِ منْ لَهَبِ الرَّمْضَاءِ تَضْرِيمُ

والآلُ عنَد هيامِ القَيْظِ مُضطربٌ ... كأنَّهُ في بساطِ القاعِ مَحْمُومُ(٣)

---

(١) ابن عذاري المراكشي ، البيان المغرب ٢/١٦٦، ١٦٧ .

(٢) ثمة نماذج أخرى لهذه المقدمات البدوية . من ذلك مقدمة قصيدة لابن بقي . انظر : الذخيرة ٢/٢ : ٦٣١، ٦٣٢ ، وانظر : قصيدة أخرى لأبي عبد الله محمد البين الذخيرة ٢/٢ : ٨٠١ .

(٣) الذخيرة ١/٢ : ١٨٥ .

واستبقى نفر من الشعراء الأندلسيين المتأخرين هذا الطابع التقليدي للمديح الذي يحلّق في مغاني البداوة ، ربما رغبةً منهم في تعزيز انتمائهم إلى مهد العروبة والإسلام ، واستمداد العزيمة من هذا الانتماء في تلك المرحلة الحرجة التي قُدّر لهم أن يعيشوها موّارةً بالصراع والحروب قبل أن تغرب شمس الوجود الأندلسي . يقول عبد الله بن لسان الدين في مطلع مديحه للسلطان النصري أبي عبد الله محمد بن يوسف :

لِمَنْ طللٌ بالرَّقْمَتَيْنِ مُحيلُ ... عفَتْ دِمْنَتَيْهِ شَمْأَلٌ وقبولُ

يلوحُ كَبَاقِي الوَشْمِ غَيَّرَهُ البلَى ... وجادَتْ عليهِ السُّحبُ وهيَ هَمُولُ

فياسعدُ مهلاً بالركابِ لعلّنَا ... نُسَائِلُ رَبْعًا فالمحبُّ سَؤولُ

قِف العيسَ ننظرْ نظرةً تُذهبُ الأسَى ... ويشْفَى بها بينَ الضلوعِ غليلُ

حلفتُ بربِّ الرّاقِصَاتِ إلى منًى ... لَهُنّ إلى البيتِ العتيقِ ذميلُ

لجودُ أميرِ المسلمينَ محمدٍ ... بِكُلِّ مرامٍ في الزمانِ كفيلُ

مِنَ النَّفَرِ البيضِ الوجوهِ لدى الوَغَى ... لَهُمْ غُرَرٌ وَضّاحةٌ وحجولُ

بِهِمْ عَزَّ دينُ اللهِ شرقاً ومَغْرِبًا ... وأصبحَ دينُ الكفرِ وهوَ ذليلُ

لَكُمْ يابَنِي نصرٍ منَ المجدِ هضبةٌ ... تزولُ الرواسي وهيَ ليسَ تزولُ[1]

٤- الرثاء :

واحتفظ الرثاء الأندلسي بكثير من تقاليد طريقة العرب المتمثلة بطغيان العنصر العاطفي والذاتي ، وبالتأسي بالعظماء من الأشخاص والدول الذين قهرهم الموت .

أما العنصر العاطفي فتبدى في التعبير عن التأثر الوجداني بالموت ، وإظهار التفجع على الفقيد . فها هو ذا سعيد بن جودي يعلن موت الصبر بعد غياب ذلك القائد الباسل ، ويعيد النغمات الحزينة السالفة في موت الفضائل

(١) نفح الطيب ٧/٢٩٢-٢٩٤ .

والسجايا بموت المرثي . يقول في رثاء أحد القواد الذين لقوا حتفهم في أثناء ثورات المولدين :

أمستنصراً بالصبرِ قدْ دُفِنَ الصَّبْرُ مع الحسَنِ المأمولِ إذْ ضمّهُ القبرُ
فيَاعَجَبًا للقبرِ منهُ يضمُّهُ وقدْ كانَ سَهْلُ الأرضِ يخشاهُ والوعْرُ
وما ماتَ ذاكَ الماجدُ القَرْمُ وَحْدَهُ بل الجودُ والإقدامُ والبأسُ والصبرُ[1]

ومن الطريف أن يرثى سعيد بن جودي فيما بعد بهذه المعاني عينها من قبل مقدّم بن معافى بمقطوعة يقول فيها :

مَن الذي يُطعمُ أو يَكْسُو وقَدْ حَوَى حلفَ النَّدَى رمسُ[2]

ويشتعل أوار الحزن العارم في نفس ابن عبد ربه الذي فُجع بابنين له أحدهما شاب ، والآخر طفل ، فشرع يرسل هذه الأناشيد الحزينة شاكياً فيها من الحزن السرمدي ، والصبر المفقود مبرزاً مشاعر اليأس القاتل . يقول في ابنه الشاب :

بَليَتْ عظامُكَ والأسى يتجدَّدُ والصبرُ يَنْفَدُ والبُكا لايَنْفَدُ
ياغائباً لايُرْتَجَى لإيَابِهِ ولقائهِ دونَ القيامةِ مَوْعِدُ
باليأسِ أسْلُو عنكَ لا بتَجَلُّدي هيهاتَ أينَ من الحزينِ تَجَلُّدُ[3]

ويستبقي ابن زمرك في عصر غرناطة هذا المنحى القديم في الرثاء ، فيقول في رثاء الخليفة محمد :

أعندكَ أنَّ الحلمَ والعلمَ والحِجَا وزهرَ الحلى قد أُدْرِجَتْ طيَّ مَلْحَدِ

---

(١) ابن الأبار . الحلة السيراء ١/١٥٩ .

(٢) الحلة السيراء ١/١٥٦ .

(٣) ديوانه ، جمعه وحققه وشرحه دكتور محمد رضوان الداية ـ الطبعة الثانية ـ دار الفكر ـ دمشق ـ سورية ، ١٩٨٧م ، ص ٧١ .

ويَاعَجَبًا مِنْ ذلكَ التــربِ كيــفَ لا يفيضُ ببحــرٍ للســماحةِ مُزبِــدِ[1]

ويتفرع عن هذا المنحى في الرثاء ضرب فريد تمثل في بكاء الشاعر زوجه . ولا ريب في أن الشعر العربي لم يألف كثيراً هذا الضرب من الرثاء ؛ إذ كان الشعراء العرب يتحرجون من التعبير عن مشاعرهم تجاه أزواجهم ؛ لأن أسوار التقاليد كانت تمنعهم من ترجمة أحاسيسهم إزاءها حية أو ميتة . ولكن هذا الضرب برز في الشعر الأندلسي بدءاً من عصر الطوائف ، وقد أطلق عليه الدكتور إحسان عباس اسم البكاء على زوال» الرقة والجمال» ، ووصفه بأنه ((لون ذاتي خالص يعتمد على ميل أصيل في نفس الشاعر إلى البوح كأنه ترجمة ذاتية قصيرة))[2]. وتجمح المشاعر العارمة بالشاعر في هذه الأشعار ، فينطلق من التفجع على مزايا الزوج كالجمال ، والدماثة ، وحسن الخلق ، ويتحدث عن وجده ولوعته بعدها . ومهما كانت الدلالات الاجتماعية لبروز هذا الفن شطرَ التاريخ الأندلسي الثاني ـ ولا سيما في عصر المرابطين[3] ـ فقد خلّف لنا قصائد بديعة تضجّ بالعواطف المتوهجة ، وتسمو إلى فضاء العشق والوله الصادقين ، وتفصح عن أشد جوانب الشاعر الأندلسي خصوصية . وثمة

---

(١) حجاجي : حمدان ، تقديم لـ شعر وموشحات الوزير ابن زمرك الأندلسي . ديوان المطبوعات الجامعية والمؤسسة الوطنية للكتاب ، بلا تاريخ ، ص ٢٣.

(٢) انظر : عباس . دكتور إحسان . عصر الطوائف والمرابطين ص ١١٩، ١٢٠ . ويرى الدكتور عباس أن هذا اللون هو بكاء يمتد من فقد الزوج بالطلاق إلى فقدانها بالموت . انظر : ص ١٢٠ .

(٣) يذهب دكتور إحسان عباس إلى أنّ ثمة تفسيرات اجتماعية أثارت هذا اللون من الرثاء في الأندلس . منها شعور الأندلسي بقيمة المرأة ، وتقديره لأهميتها ، وأن هذا الشعور قوي في أيام المرابطين بسبب نظامهم الاجتماعي ، ومن أسبابه التزلزل الذي أصاب شعور الأندلسي المرهف ، وجعله يحسّ في الفقد لا معنى الفقد نفسه ، بل حاجته إلى سكن يأوي إليه ، وتمثّل المرأة هذا السكن في حياته على نحو عميق ، لأنها كانت تشاركه صعوبات الحياة غالباً . انظر : عصر الطوائف والمرابطين ص١٢٠.

نماذج عديدة لهذا الفن . منها قصيدة لأبي إسحاق الإلبيري في رثاء زوجه يبوح فيها بأرق المشاعر وأسماها . يقول :

إنّـــي لأَسْـــتَحْيِيهِ وهـــوَ مُغَيّـــبٌ ... في لَحْـــدِهِ فكأنَّـــهُ كالحاضـــرِ
ولـــو أنَّـــني أنْصَـــفْتُه في ودِّه ... لَقضَـــيْتُ يـــومَ قَضَـــى ولمْ أَسْـــتَأْخرِ
أَجِـــدُ الحـــلاوةَ في الفـــؤادِ بكونِـــهِ ... فيـــه وأرعـــاهُ بعـــينِ ضَـــمَائِري[1]

ويتبدى هذا التدفق العاطفي في قصائد أخرى ، منها قصيدة ابن حمديس في بكاء جاريته وأم ولده «جوهرة» التي غرقت في البحر فتفجع على فقدها ، وأفاض في رثاء جمالها والتحسر على رقتها[2] . وأسرف الأعمى التطيلي في ندب جمال المرثية وبكاء محاسنها النفسية ، ومزجه بحديث المشاعر المهتاجة والوجد الدفين . يقول :

ونُبِّئْـــتُ ذاكَ الوجـــهَ غيَّـــرَهُ البِلَـــى ... على قُرْبِ عهدٍ بالطلاقـــةِ والبِشْـــرِ
يُهَوِّنُ وَجْـــدِي أنَّ وجهَـــكِ زهـــرةٌ ... وأنَّ ثَرَاهَا مِنْ دمـــوعي علـــى ذكْـــرِ
ونُبِّئْتُ ذاكَ الجيـــدَ أصـــبحَ عـــاطِلاً ... خُذِي أدمُعِي إنْ كنْتِ غَضْبَى على الدرِّ[3]

وتستمر هذه الظاهرة في الأندلس بتقدم الزمن ، فنرى ابن الزقاق يبكي

---

(١) ديوانه ، حققه وشرحه وقدم له دكتور محمد رضوان الداية . دار قتيبة . ط ٢، ١٩٨١م، ص ٩٠، ٩١ .

(٢) يقول ابن حمديس في هذه القصيدة :

أيـــا رشـــاقةَ غصـــنِ البـــانِ ماهصـــرَكْ ... ويا تألفَ نظـــمِ الشـــملِ مَـــنْ نثـــرَكْ

ويخاطب البحر الذي طواها معاتباً :

هـــلاَّ نظـــرْتَ إلى تفـــتيرِ مقلتِهـــا ... إنّي لأعجبُ منـــه كيـــف مـــا سَـــحَرَكْ

ديوانه ص ٢١٢، ٢١٣ .

(٣) ديوانه ومجموعة من موشحاته . تحقيق:دكتور إحسان عباس نشر وتوزيع دار الثقافة، بيروت ـ لبنان ١٩٦٣م ، ص٧١ .

زوجه (درّة) بكاءً مؤثراً على النحو السابق[1] ، ويبكي أبو عامر بن الحمارة الفيلسوف زوجه (زينب) بكاءً لايفترق كثيراً عن النماذج السابقة[2] . وكذلك يرثي محمد بن أحمد بن جبير (-٦١٥هـ) زوجه عاتكة أم المجد[3] .

أما المظهر الآخر لطريقة العرب في الرثاء الأندلسي فهو نزوع الشاعر أثناء رثائه لشخص ، أو دولة إلى الإشارة إلى عظماء الناس والدول الذين غيّبهم الموت رابطاً بين فجيعته الحالية وفجائع الأزمان الغابرة ، رامياً إلى الاعتبار والتأسي من جهة ، وتهوين الخطب من جهة أخرى في سياق يقضي بحتمية الموت الذي لايستثني عظيماً أو شريفاً ، بل يدرك الجميع ملوكاً ، أو عظماء ، أو دولاً ، أو صروحاً حضارية ، أو مظاهر طبيعية .

ويرتبط هذا المنحى أكثر مايرتبط بالشاعر ابن عبدون الذي سلك هذه السبيل مرتين : أولاهما في قصيدة في رثاء الوزير الفقيه أبي مروان بن سراج يقول فيها :

نعَمْ هو الدهرُ مأبقَتْ غوائلُهُ على جديسٍ ولا طسمٍ ولا عادِ
ألقَتْ عصاها بنادي مأربٍ ورمَتْ بآلِ مامةَ من بيضاءِ سنداد
وأسلمَتْ للمنايا آلَ مسلمةٍ وعبَّدتْ للرزايا آلَ عبّادِ [4]

---

(١) انظر : ديوانه ، ص ٢٢٦، ٢٢٧ .

(٢) انظر : ابن سعيد. رايات المبرزين وغايات المميزين تحقيق : دكتور محمد رضوان الداية. دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر . دمشق ط ١ ، ١٩٨٧م ، ص ٢٣٣، وانظر : المغرب ١٢٠/٢ .

(٣) انظر : نفح الطيب ٤٨٨/٢ ، وذكر دكتور إحسان عباس أن ابن جبير أفرد لرثاء زوجه ديواناً كاملاً من الشعر والموشحات . انظر : عصر الطوائف والمرابطين ص ١٢١، ١٢٢ . وهذا لم يرد في النفح ولم نعثر عليه في مصدر آخر .

(٤) ديوانه ، إعداد وتحقيق وتأليف سليم التنير . دار الكتاب العربي ، دمشق ، سورية ، ط ١ ، ١٩٨٨م ، ص ١٢٧، ١٢٨ .

أما القصيدة الأخرى فهي مرثيته الذائعة في بني الأفطس حكام بطليوس . يقول في فجائع الدهر :

هوَتْ بِدَارا وفلّتْ غَرْبَ قاتلِه ... وكانَ عضباً على الأملاكِ ذا أثرِ

واسترجعَتْ من بني ساسانَ ماوهبَتْ ... ولم تدعْ لبني يونانَ مِنْ أَثَرِ

وألحقَتْ أختَهَا طسْماً وعادَ على ... عادٍ وجرهم منها ناقضُ المررِ

وما أقالَتْ ذوي الهيئاتِ مِنْ يَمَنٍ ... ولا أجارَتْ ذوي الغاياتِ مِنْ مُضَرِ[1]

ومع أن هذا الحشد للقصص وتكلف سرد الأحداث التاريخية ينم على ميل الشاعر إلى إبراز ثقافته الواسعة مع أن المناسبة الحزينة لاتستدعيه ، وعلى الرغم من أن هذا التكلف وسم القصيدة بالبرود فإنّ مسلك ابن عبدون يمثّل تمسكاً بمذهب الأوائل في طول النفس فضلاً عن التمثل بالعظماء في الرثاء والتأبين . وهذا مالاحظه ابن بسام حيث أشار إلى اقتفاء الشاعر طريقة العرب في الرثاء ، وأنّ هذا المنحى يفارق منحى المحدثين . يقول : ((وهذه القصيدة طويلة سلك فيها أبو محمد طريقته في الرثاء إلى الإشارة والإيماء بمن أباده الحدثان من ملوك الزمان ، وقد نسق ذكرهم على توالي أزمانهم... واقتفى أبو محمد أثر فحول القدماء من ضربهم الأمثال في التأبين والرثاء بالملوك الأعزّة ، وبالوعول الممتنعة في قلل الجبال ، والأسود الخادرة في الغياض ، وبالنسور والعقبان والحيات في طول الأعمار ، وغير ذلك مما هو في أشعارهم موجود . فأما المحدثون فهم إلى غير ذلك أميل ، وربما جروا أيضاً على السنن الأول))[2].

---

(١) ديوانه ص ١٤٠، ١٤١ . والمطرب ص ٢٨ ، والأثر : فرند السيف ، وأخت طسم : جديس وهما قبيلتان من قبائل العرب البائدة وموطنهما باليمامة . ناقض المرر : أراد به الدهر . ودارا : آخر ملوك الفرس . وقاتله : هو الإسكندر المقدوني .

(٢) الذخيرة ٢/١ : ٨١٨ .

ولم يقنع الأعمى التطيلي بسرد أسماء الدول والأشخاص العظماء في سياق ضرب المثل والتأسي ، بل اتخذ من الصروح الحضارية وعناصر الطبيعة باعثاً للعظة . يقول في رثاء ابن الياقي سالكاً السبيل ذاتها :

خُـذَا حـدّثاني عـن فُـلٍ وفـلانِ لعلّي أرى بـاقٍ علـى الحـدثانِ[1]

وعن هرمَـيْ مصـرَ الغـداةَ أَمُتِّعَـا بشـرخِ شـبابٍ أم هُمـا هَرِمَـانِ

وعن نخلتَيْ حلـوانَ كيـف تناءَتَـا ولم تطويا كشـحاً علـى شَـنَآنِ[2]

وأعلنَ صرفَ الدهرِ لابنَـيْ نـويرةٍ بيـومِ تنـاءٍ غـالَ كـلَّ تـدانِ[3]

وسلك أبو البقاء الرندي في أواخر أيام الأندلس في قصيدته الشهيرة في رثاء الأندلس النهج ذاته[4] . وكذلك صنع لسان الدين بن الخطيب في رثائه أبا الحسن المريني ناحياً المنحى السابق[5].

٥- وصف المفاوز والصيد :

من الموضوعات الجزئية التي ألمَّ بها شعراء المذهب القديم وصف الفلوات وقطع المفاوز وما يكتنفها من مخاوف وأهوال . وثمة نماذج عديدة لهذا الفن[6] يقتفي فيها الشاعر الأندلسي آثار الجاهليين والأمويين في استحضار عناصر الليل ، والخوف ، والصدى ، والسراب ، وظمأ النوق ، وإجهاد الركب . في سياق الاعتداد بشدة البأس وثبات الجنان مع الاستعانة بصور البداوة

---

(١) باق : وردت كذا والصواب (باقياً) .

(٢) نخلتا حلوان : هما اللتان ذكرهما مطيع بن إياس في قوله :

أسـعداني يـانخلتَيْ حلـوان وابكيـا لي مـن ريـب هـذا الزمـان

(٣) ابن نويرة : مالك وأخوه متمم . ديوان الأعمى التطيلي ص ٢٢٤، ٢٢٥ .

(٤) انظر : قصيدة أبي البقاء في نفح الطيب ٤/٤٨٧، ٤٨٨ .

(٥) انظر : ديوانه ١/٤٤٤، ٤٤٥ .

(٦) انظر : ابن الكتاني الطبيب كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس . تحقيق : دكتور إحسان عباس . دار الثقافة ـ بيروت ـ لبنان . ١٩٦٦م ، ص ١٧٣-١٧٨ .

التقليدية ، واعتماد اللفظ الجزل والغريب . يقول سعيد بن العاصي في إحدى هذه المهالك :

ولربّ مهلكةٍ قطعْتُ بساطَها ... والليلُ مسودُّ الجوانبِ أدهمُ[1]

يهماءُ يضحي الخوفُ يمنع ركبَها ... أن يُعلنوا الأصواتَ أو يتكلّموا

وكأنّما الأصداءُ في جنباتِها ... تحتَ الظلامِ إذا صدَتْ تتلعثمُ

خرقٌ تظلُّ بها الرياحُ إذا جرَتْ ... من حيثما انخرقَتْ تكلُّ وتسأمُ[2]

جاوزْتُهُ وكأنّما ساحاتُهُ ... في آلِهَا الملتجِّ بحرٌ مفعمُ[3]

ويلحق بوصف المفاوز وصف الطرد والصيد ؛ إذ ضرب الأندلسيون بسهم في هذا الفن الذي ينغمس في المحيط البدوي ، فوصفوا حيوانات الصيد وصقورها ، ولهجوا بذكر أسماء المواضع المشرقية معتمدين حزونة الألفاظ وغريبها على غرار الطرديات الجاهلية[4] . وهو ماسنلمُّ به في حديثنا عن اللغة الشعرية .

ويتبيّن من استعراض أشعار هذين الفنَّيْن ـ وصف المفاوز ، والطرديات ـ أنَّ جلَّ من توفر عليهما إنما هم من اللغويين الذين نظموا فيهما إبرازاً لثقافتهم اللغوية والأدبية المحافظة في استخدام اللفظ الحوشي ، وتمثّل الأجواء البدوية ، والصور الجاهلية ، وتعبيراً عن ميل الذوق الأندلسي إلى هذه الفنون .

---

(١) البساط : بفتح الباء الأرض المنبسطة .

(٢) خرق : فضاء واسع وممتد .

(٣) التشبيهات ص ١٧٥، ١٧٦، وانظر : أبياتاً أخرى في هذا الموضوع لعباس بن ناصح . كتاب التشبيهات ص ١٧٣ .

(٤) انظر : أبيات عباس بن فرناس في التشبيهات ص ١٨٢، ١٨٣ ، وانظر : أبياتاً أخرى لابن حمديس في الصيد . ديوانه ص ١٢٧ .

٦- معاداة عناصر الثقافة الجديدة :

أسفرت النهضة الثقافية التي عرفتها الأندلس في مراحل بعينها من تاريخها ـ ولا سيما في عصر الخلافة الأموية ـ عن بروز ظاهرة شعرية فريدة تجلت في رفض بعض الأفكار العلمية ومناصبتها العداء ، ومواجهة عناصر الثقافة الجديدة بالسخرية والإنكار . واتسم شعراء هذا الاتجاه ـ كما يلوح ـ بروح المحافظة ، وبثقافة تقليدية بعيدة عن الإلمام بالمعارف الجديدة كالفلك والجغرافيا ، والفلسفة . وهذا ماحملهم على إنكار هذه العلوم الجديدة والنيل من أصحابها . وتفصح هذه الظاهرة عن شيوع الدراسات الفلكية والجغرافية في هذه الأطوار الأندلسية ، وتنم على الحرية الفكرية التي نعمت بها الأندلس آنذاك .

ومن أبرز شعراء هذا المنحى ابن عبد ربه الذي عُرف بميله المحافظ ، وثقافته التقليدية فضلاً عن طبعه الحاد وتسرعه في الهجاء[١] ، وكان كتابه (العقد) مجلى لثقافته تلك ، ولقد دفع التشدد في النفسية والثقافة هذا الشاعر إلى عداء كل جديد لم يألفه المجتمع بعد ، وإلى التصادم مع الفلكي أبي عبيد مسلم بن أحمد البلنسي (- ٢٩٥هـ) عالم الحساب والنجوم[٢] ، والتهكم بأفكاره الفلكية والجغرافية ، وتفنيدها واصفاً صاحبها بالشذوذ عن الجماعة . يقول :

أبا عبيدةَ ماالمسؤولُ عن خبرٍ ... تحكيه إلا سواءٌ والذي سَألا

أبيْتَ إلاّ اعتزالاً عن جماعتِنا ... ولم تُصِبْ رأيَ مَنْ أَرْجَا ولا اعْتَزَلا[٣]

---

(١) انظر : هذه الصفات النفسية لابن عبدربه في عصر سيادة قرطبة ص ١٨٥ .

(٢) اعتنى هذا الفلكي بعلم الحساب والنجوم . كان معروفاً بـ (صاحب القبلة) لأنه كان يسرف كثيراً في صلاته ، وكان عالماً بحركات الكواكب وأحكامها ، وكان مع ذلك صاحب فقه وحديث . دخل إلى الشرق ، فسمع بمكة عن مجموعة من العلماء . انظر : صاعد أبو القاسم . طبقات الأمم . مطبعة السعادة بمصر ص١٠٠ .

(٣) أرجأ واعتزل : انتمى إلى فرقة المرجئة ، أو فرقة المعتزلة . وهو يعني مطلق خلاف أهل الجماعة .

زعَمْتَ بـهرامَ أو بيـدختَ يرزقُنَـا لا بل عطاردَ أو برجيسَ أو زُحَـلاَ[1]

والأرض كوريّة حفَّ السماءُ بـها فوقاً وتحتاً وصـارَتْ نقطـةً مَـثَلاَ[2]

ويثور ابن عبد ربه في مقام آخر على علوم الفلك والنجوم ، وعلى الكتب المؤلفة فيها ، ويعدّها محض افتراء على الخالق العظيم الذي تفرد بالعلم وحده، دافعاً مزاعم أصحابها في معرفة الغيب . يقول :

فـأين الـزيجُ والقـانو نُ والأركنـدُ والكمَّـهْ

وأيـن السـند هنـدُ البـا طـلُ الجـدولُ هـل ثَمَّـهْ

سـوى الإفـكِ علـى الله تعـالى مُنْشـرِ الرمّـةْ[3]

---

(١) بهرام : المريخ ، وعطارد وزحل معروفان . وبرجيس : المشترى أو هو نجم .

(٢) ديوانه ص ١٥٧ ويرتبط موقف ابن عبدربه هذا بالموقف الأندلسي العام المعرض عن علوم الفلسفة والتنجيم والازورار عمن يشتغل بها . فهذا المقري يقرر في حديثه عن علوم الأندلسيين : ((وكل العلوم لها عندهم حظّ واعتناء إلا الفلسفة والتنجيم ، فإنَّ لهما حظًّا عظيماً عند خواصهم ، ولا يُتظاهر بهما خوف العامة فإنه كلما قيل « فلان يقرأ الفلسفة » أو « يشتغل بالتنجيم » أطلقت عليه العامة اسم زنديق ، وقُيّدت عليه أنفاسه ، فإن زلّ في شبهة رجموه بالحجارة أو حرقوه قبل أن يصل أمره للسلطان ، أو يقتله السلطان تقرباً لقلوب العامة . وكثيراً مايأمر ملوكهم بإحراق كتب هذا الشأن إذا وجدت » نفح الطيب ٢٢١/١ . واستمرت كراهة التنجيم حتى عصور متأخرة من التاريخ الأندلسي . يقول ابن سعيد في حديثه عن علم التنجيم : « وكان مطرف الإشبيلي في عصرنا قد اشتغل بالتصنيف في هذا الشأن إلا أنّ أهل بلده كانوا ينسبونه للزندقة بسبب اعتكافه على هذا الشأن ، فكان لايُظهر شيئاً مما يصنّف » . نفح الطيب ١٨٦/٣ .

وعلى الرغم من أن هذا الموقف من التنجيم وعلوم الأوائل لم يكن مطلقاً في عصور الأندلس كلها ؛ إذ عرفت الأندلس مراحل عديدة من التسامح والحرية الفكرية نشطت معها هذه العلوم فلعل في إنكار هذه العلوم ـ ولا سيما التنجيم ـ بعداً دينيًّا ناشئاً عن النهي عن الخوض فيه ، وإنكاراً للانقسام في الجماعة الأندلسية والخروج على وحدتها وهذا مادفع ابن عبد ربه إلى وصف الفلكي أبي عبيدة بالشذوذ عن الجماعة وخلافهم ، وبَعَثه على مهاجمته والسخرية منه .

(٣) ديوانه ص ١٧٨ .

ويشاء القدر أن ينصر ابن عبد ربه على خصومه في حادثة طريفة حين كان في مجلس أحد الوزراء وقد ألمّ القحط ، واحتبس الغيث وأدرك الناس غمٌّ لذلك ، واستطلع المنجمّون ـ ومنهم ابن عزرا ـ تأخُّر الغيث مدة طويلة ، فرفض ابن عبد ربه مزاعمهم ، ورجا أن يكذّبهم الله بفضله ، فلم يلبث بعد ساعات أن هطل المطر ، فسُرّ الشاعر ونظم هذه الأبيات يسخر فيها من خصومه ويسفّه علومهم . يقول فيها :

ماقدّر اللهُ هو الغالبُ ... ليس الذي يحسبه الحاسبُ

قل لابن عزرا السخيفِ الحجا ... زرى عليك الكوكبُ الثاقبُ

ما أنتمُ شيءٌ ولا علمُكُم ... «قد ضعف المطلوبُ والطالبُ»[1]

وعلى هذا النحو مضى شعراء المذهب القديم يهاجمون هذه العلوم ـ ولا سيما علم النجوم ـ ويفنّدون آراء أصحابها ، ويدفعون حججهم ، ويفوّضون لله الخالق تقدير الأقدار ، وإمضاء الأحكام . فهذا عيسى بن قرلمان يقول :

لو كان عندَ النجومِ السابحاتِ بما ... يجري على الخَلْق من أنبائِهِمْ خبرُ

لم يحتلِلْ بذراهم ريبُ حادثةٍ ... بل كانَ ينجيهُمُ الإنذارُ والحذَرُ[2]

موضوعات المذهب المحدث

فرضت الحياة الأندلسية الجديدة التي تموج بالترف والحضارة والتحرر عناية بالموضوعات الشعرية التي تتصل بهذه الحياة ، فشاعت ـ كما حصل في الشعر المشرقي ـ موضوعات المجون ، والخمرة ، والغزل بالغلمان ، والوصف ، وشعر الطبيعة ، والزهد ، والتصوف ، والمديح النبوي ، والفكاهة ، والنقد

---

(١) ديوانه ص٣٦، ٣٧. يشير ابن عبد ربه إلى معنى الآية الكريمة ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ** ﴾(الحج:٧٣).

(٢) عباس . دكتور إحسان . عصر سيادة قرطبة ص١٢٣. وقد نقل دكتور عباس هذين البيتين من كتاب بهجة المجالس لابن عبد البر . مخطوطة بدار الكتب المصرية .

الاجتماعي والأخلاقي . فضلاً عن بعض الموضوعات الأساسية والجزئية التي تفرّدت بها الأندلس وكان لها فيها شأن خاص كشعر الاستغاثة ورثاء المدن الأندلسية المنهارة ، وبعض الموضوعات الجزئية الأخرى .

١ - المجون والخمر :

لعله أبرز موضوعات الاتجاه المحدث ؛ إذ صوّر الشعر ماكان يموج في مجتمع الأندلس من إقبال على الشراب والغناء ، ومجالس الأنس ، وجنوح إلى العبث والتهتك ، فأفاض هؤلاء الشعراء في حديث الخمرة والانغماس في ملذاتها والفناء فيها ، ولم يتورع ملوكهم وأمراؤهم عن الخوض في هذا المسلك . فهذا الأمير المطرف بن عبد الرحمن الأوسط يفني لياليه وأيامه في المتع حائداً عن طريق الصلاح . يقول متماجناً :

أفنيتُ عمري في الشّرْ ... بِ والوجوهِ المِلاحِ
ولم أضيّعْ أصيلاً ... ولا اطلاع صباحِ
أحيي الليالي سُهْداً ... في نشوةٍ ومراحِ
ولستُ أسمعُ ماذا ... يقول داعي الفلاحِ [1]

وفُتن كثير من شعراء الأندلس باستيحاء مذهب أبي نواس في التغني بأجواء الخمر واللذة ، وبرع بعضهم في ذلك حتى التبس الأمر على نقاد المشرق ، فحسبوا مايُلقى عليهم شعراً لأبي نواس . وهنا تبرز رواية رحيل الشاعر يحيى الغزال إلى المشرق بُعيد موت أبي نواس وإنشاد المشارقة قصيدة خمرية له يحاكي فيها مذهب الشاعر المشرقي ، وإعجابهم بها ، ومن ثَمَّ نسبتها إليه انتصاراً لأدبه وأدب قومه أمام إزراء المشارقة لهم . وهي القصيدة التي يقول فيها :

ولمّا رأيتُ الشربَ أكْدَتْ سماؤُهُم ... تأبّطتُ زقّي واحتسبتُ عنائي [2]

---

(١) نفح الطيب ٣/٥٧٨ .

(٢) أكدى إكداءً : قلَّ خيره . يريد : نفد ماعندهم من الشراب .

فلَمّـا أتيـتُ الحـانَ ناديـتُ ربّـهُ فثابَ خفيفَ الـروحِ نحـوَ نِـدَائِي
فقلـتُ أذقْنِيهَـا فلمّـا أذاقَهَـا طرحْـتُ إليـهِ ريْطَتِـي وَرِدَائِـي
وقلتُ أعِرْنِي بِذْلَـةً أَسْـتَتِرْ بـها بذلْتُ لهُ فيهـا طَـلاَقَ نسـائِي[1]

وأفصح الشعر عما كان يدور في مجالس الأنس من إقبال على الخمر وشغف بها واستدعاء لشربها[2] ، وأفضت هذه المجالس إلى بروز فن المطارحات الشعرية ، والمحاورات والرسائل المتبادلة بين الندامى والشاربين ، ولم يخلُ بعض هذه المحاورات من اطراح الحشمة والوقار ، والتدني إلى حدود التبذل ومسّ الأعراض[3] . كما يلوح في بعض هذه المطارحات التهالك البالغ على الشراب والمسرة ، والجنوح إلى انتهاب اللذة خوفاً من صروف الدهر ونوائبه . من ذلك ماروي عن بني القبطورنة أبي بكر ، وأبي محمد ، وأبي الحسن من أنهم « باتوا ليلةً على راحة ، فلما همّ رداء الفجر أن يندى ، وجبينُ الصبح أن يتبدى قام أبو محمد فقال :

ياشـقيقي أتـى الصـباحُ بوجـهٍ سـترَ الليـلَ نـورُهُ وبـهاؤُهُ
فاصـطبحْ واغتـنمْ مسـرَّة يـومٍ ليسَ تدري بـما يجـيءُ مسـاؤُهُ

ثم استيقظ أخوه أبو بكر وقال :

يا أخـي قُـمْ تَـرَ النسـيمَ علـيلا بـاكرِ الـروضَ والمُـدامَ الشَّـمُولاَ

---

(١) الريطة : كل ثوب رقيق لين . ديوانه ، جمعه وحققه وشرحه دكتور محمد رضوان الداية . دار الفكر المعاصر ـ بيروت . دار الفكر ـ دمشق . ط ١ ، ١٩٩٣م ، ص٢٩ .

(٢) من ذلك دعوة الوزير أبي عامر بن مسلمة الشعرية إلى الأديبين أبي علي إدريس ، وأبي جعفر بن الأبار إلى مجلس شراب ، وإجابة أبي علي إدريس الشعرية عليها . انظر : الذخيرة ١/٢ : ١٠٦، ١٠٧ .

(٣) انظر : الهجاء المتبادل بين نزهون الغرناطية ، وأبي بكر الأعمى المخزومي في المغرب ٢٢٨/١ .

لاتَـــنَمْ واغتـــنِمْ مَسَـــرَّةَ يـــومٍ إنَّ تحـــتَ التـــرابِ نومـــاً طـــويلا

ثم استيقظ أخوهما أبو الحسن وقال :

ياصـــاحبيَّ ذَرَا لـــومي ومَعْتبتِـــي قم نصطبح خمرة من خـير مـاذخروا

وبـــادرا غفلـــةَ الأيـــامِ واغتنِمَـــا فاليومَ خمرٌ ويبدو في غـدٍ خـبرُ))[1]

وعلى هذا النحو يمضي ابن سعيد في تماجنه من تمجيد الخمر والتفاني فيها متأسياً بأعلام عشاقها المشارقة رابطاً وجوده بوجودها . يقول :

فنلـــتُ كـــلَّ سُـــؤْلٍ يفـــنى بـــه الحســـودُ

أُضْـــحي بـــه وأُمْسِـــي مرتّحـــاً أميـــدُ

كـــأنَّني يزيـــدُ كـــأنَّني الوليـــدُ

الخمـــرُ ملّكَـــتْني فـــالخلقُ لي عبيـــدُ

إذا عـــدمتُ كأســـي فلـــيس لي وجـــودُ[2]

وأغرق بعض شعراء الغزل المحدثين في الحسية ، وتجاوزوا كل حدّ في الصراحة والعبث ، فتهتكوا في حديثهم عن المرأة ، وأفحشوا في وصف لقائهم بها مستخدمين من الصور الفاضحة ، والإشارات المبتذلة مايذكرنا بأعلام ذلك الاتجاه من المشارقة كبشار ، وأبي نواس ، وغيرهما . من ذلك قصيدة للشاعر يحيى الغزال مطلعها :

خرجـــتْ إليـــكَ وثوبُهـــا مقلـــوبُ ولقلبِهـــا طَرَبـــاً إليـــكَ وجيـــبُ[3]

---

(١) ابن سعيد . المغرب ١/٣٦٧، ٣٦٨ .

(٢) نفح الطيب ٢/٣١٦ .

(٣) ديوانه : ص ٣٣ . ووجب القلب : خفق . وصُدِّرت هذه الأبيات في الديوان بعبارة «وله على أسلوب أبي حكيمة راشد بن إسحاق الكاتب» وهو كاتب عباسي كان صديقاً لابن الزيات «وذكر ابن المعتز أنه من جماعة كانوا يصفون أنفسهم بضدّ ما هم عليه حتى اشتهروا بذلك . انظر : طبقات الشعراء تحقيق : عبد الستار فراج . دار المعارف بمصر . ص٣٠٩ . وانظر : ترجمته لابن حكيمة ص ٣٨٩-٣٩١ .

ومن ذلك أيضاً تلك المحاورة الشعرية التي دارت بين عبد الملك بن شهيد والحاجب المنصور حين صدر هذا عن بعض غزواته ، فكتب إليه ابن شهيد ـ وكان قد تخلف عنه ـ يستهديه من السبي الذي جلبه معه قائلاً :

أنا شيخٌ والشيخُ يهوى الصبايا يا بنفسي أقيك كلَّ الرَّزايا

فبعث إليه المنصور بعقيلة من عقائل الروم ، ومعها ثلاث جوار من أجمل السبي . وكتب إليه :

قد بعثنا بها كشمسِ النهارِ في ثلاثٍ من المها أبكارِ...

فجاوبه ابن شهيد بشعر يفيض بالتلميحات العابثة والإشارات الماجنة[1] . ومن هذا الشعر المجوني قصيدة لأبي القاسم المنيشي المعروف بعصا الأعمى لايتورع فيها عن وصف دقائق لقائه بصاحبته وصفاً ينبو الذوق السليم عنه لفحشه وإسفافه . وهي القصيدة التي يقدّم لها بقوله :

وعَجْزَاءَ لفّاءَ وفَق الهوى تحيَّرْتُ فيها وفي أمرِهَا[2]

وكذلك ضرب ابن الأبار بسهم في هذا المنزع الذي يجاهر بالفجور ويتظرف بالخلاعة مقتفياً نهج مجان المشرق في شعر يتحرج المرء من إثباته[3] .

وبرز هذا الاتجاه اللاهي الماجن في الموشح ، فتجلى فيه السعي إلى اللذة التي اتخذها بعضهم مسلكاً في الحياة لايعدلون به مذهباً آخر . يقول ابن أرفع رأسه منافحاً عن هذا المنحى :

الراحُ والرضابُ مافيهما حرجْ

---

(١) انظر : هذه المحاورة الشعرية في نفح الطيب ١/٤٠٠، ٤٠١ ، وتكررت مرة أخرى بلفظ المطمح في النفح ١/٥٨٥، ٥٨٦ .

(٢) انظر : القصيدة كاملة في المغرب ١/٢٩٠ . ومن هذا المنحى المجوني المتهتك أبيات للوزير أبي محمد المصري في الذخيرة ١/٤ : ٣٥٦ .

(٣) انظر : نص ابن الأبار في الذخيرة ١/٢ : ١٥٠، ١٥١ . ولم أعثر عليه في ديوانه .

إلا لكـــــل بِـــــدْعٍ عـــن ديننـــا خـــرجْ[1]

ويقول ابن حبيب القصري الفيلسوف مفصحاً عن صدى مذهب أبي نواس في الأندلس :

لاتشـــربِ الكـــاسَ دونَ ســـاقِ تســـتبيك مِـــنْ وجهِـــهِ فـــتنْ
مهفهـــفُ الخصـــرِ ذو نطـــاقٍ يجـــولُ منـــه بكـــلِّ فـــنّْ
وَقْـــفٌ علـــى اللـــثمِ والعنـــاقِ يصـــلحُ في مـــذهبِ الحســـنْ[2]

وإننا لنستشفّ في تضاعيف هذا الاندفاع الغامر نحو انتهاب اللذة حزناً خفيًّا يسعى الشاعر إلى دفعه بتغييب العقل ، واستكمال عناصر الأنس والمتعة . وإذا كان هنري بيريس ردّ هذا الملمح الحزين في الشخصية الأندلسية إلى أصول الأندلسيين العرقية[3] فإننا نراه ملمحاً ناجماً عن الوضع الأندلسي العامر بالقلق والحروب التي لا تهدأ ، مما دفع الأندلسي إلى الانغماس في الزهد والعزلة ، أو إلى الحدة في طلب اللذة ، والتطرف في السعي إليها . يقول المعتمد بن عباد داعياً إلى محاربة الهموم بسيف المتعة واللذة :

عَلِّـــلْ فـــؤادَكَ قـــدْ أبَـــلَّ عليـــلُ واغـــنمْ حياتَـــكَ فالبقـــاءُ قليـــلُ
لايستبيكَ الـــهمُّ نفسَـــك عنـــوةً والكأسُ ســـيفٌ في يـــديكَ صـــقيلُ
بالعقلِ تزدحمُ الـــهمومُ على الحشـــا فالعقلُ عندي أنْ تـــزولَ عقـــولُ[4]

---

(١) غازي . دكتور سيد ، ديوان الموشحات الأندلسية . تحقيق . المجلد الأول . مكتبة المعارف بالإسكندرية ، ١٩٧٩م ، ص١٩ .

(٢) المغرب ٢٩٧/١ ، وديوان الموشحات الأندلسية ١٦١/٢ .

(٣) انظر : الشعر الأندلسي في عصر الطوائف ـ ترجمة دكتور الطاهر أحمد مكي ، ط ١، ـ دار المعارف بمصر ـ القاهرة ١٩٨٨م ، ص ٣١٩ .

(٤) ديوانه ، جمعه وحققه أحمد أحمد بدوي ، وحامد عبد المجيد ، أشرف عليه وراجعه دكتور طه حسين ، المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٩٥١م ، ص ٢٥ .

ويتصل بالمسلك المجوني السابق ظاهرة العبث بالمقدسات الدينية ، فيعمد الشاعر في غمرة تماجنه ، وفي فورة انسياقه في تيار المتع إلى المساس بالمقدسات الدينية عقائد كانت ، أو شعائر ، أو أحكاماً . وتلك ظاهرة عرفها الشعر المحدث المشرقي ، وكان من أعلامها بشار ، وحماد عجرد ، ومطيع ابن إياس ، ووالبة بن الحباب[1] . وإذا كان العديد من هؤلاء الشعراء قد وُسموا بالزندقة ولا سيما حماد عجرد ، ومطيع بن إياس فإن هذا الاتهام لم يكن شائعاً في الأندلس كما كانت الحال في المشرق ولا سيما بين الشعراء . أما ماكان يجنح إليه بعض الشعراء من مجاهرة بالعصيان ، واستهانة بالأحكام الدينية فمردُّه ، في الأغلب ، إلى نزوع خليع ، ورغبة في محاكاة هذا المنزع الشعري المشرقي . فضلاً عن أن الواقع الاجتماعي الأندلسي كان يستدعي مثل هذه المنازع في الشعر نظراً لانتشار الترف والتحضر ، وبروز الآثار السلبية لتلك المدنيّة مع ضعف الوازع الديني والأخلاقي لدى أولئك الشعراء .

وكان الرمادي الكندي من أوائل من سلكوا هذه السبيل . فها هو ذا يخاطب الساقي « نصير » متخذا منه نديماً على الخمرة ، متغنياً بصفائها ، مضفياً عليها صفات القداسة والتمجيد ، مقدّماً شربها على أداء العبادات . يقول :

اشربِ الكأسَ يانصيرُ وهاتِ إنّ هذا النهارَ مِنْ حَسَناتي
تسرعُ الناسُ نحوَها بازدحامٍ كازدحامِ الحجيجِ في عرفاتِ
لو مضى الدهرُ دونَ راحٍ وقصفٍ لعدَدْنَا هذا من السيئاتِ[2]

وسواء أكانت هذه الأبيات تنطوي على محض التعابث ، أم كانت تحمل سخرية واستهانة بهذه الشعائر فهي لا تخلو من التطاول على هيبة هذه

---

(١) انظر : أخبار هؤلاء المجان الزنادقة في ضيف دكتور شوقي . العصر العباسي الأول ـ دار المعارف بمصر ـ ط ٦ ، ص ٣٨٢-٣٩٣ .

(٢) ابن خاقان . مطمح الأنفس ص ٨١ .

العبادات ، وذاك لمجرد مقايسة معاقرة الخمرة بها ، بله تقديمها عليها . ولما كان الرمادي متهالكاً على الخمرة إلى هذا الحدّ فلا غرو أن يتفجع لإراقتها ، ويتوجع لشاربيها كما مرَّ بنا .

وصبَّ هؤلاء الشعراء نقمتهم على شهر الصيام الذي حرمهم من المتع والملذات . وتفاوتت مواقف هؤلاء من الشهر المعظّم . فإذا كانت لهجة أمية ابن عبد العزيز بن أبي الصلت الأندلسي (- ٥٢٩هـ) لاتخرج عن العتاب والأسف لفوات اللذة مع محافظته على تقدير الشهر المبارك والاعتراف بقدسيته بقوله :

أشهرَ الصَّومِ مامثلُكَ عندَ اللهِ مِنْ شهرِ
ولكنّكَ حجَّرْتَ علينا لذّةَ السُّكْرِ
وغمْزَ اللحظِ باللحظِ وقَرْعَ الثَّغْرِ بالثَّغْرِ[1]

فإنّ أبا جعفر أحمد بن طلحة الوزير الكاتب ـ وكان من المشهورين بعبثه وخلاعته ـ أمعن في مجونه ، بل أقرّ بالزندقة والكفر ، واستهان بالدين الحق ، وبرئ منه متخذاً دين إبليس دين الشراب واللذة . انظر هذا الحوار بينه وبين اللاحي الفضولي :

يقولُ أخو الفضولِ وقدْ رآنا على الإيمانِ يغلبُنَا المجونُ
أتَنْتَهِكونَ شهرَ الصومِ هَلاّ حَمَاهُ مِنْكُمُ عقلٌ ودينُ
فقلتُ اصحَب سوانا نحنُ قومٌ زنادقةٌ مذاهبُنا فنونُ
ندينُ بكلِّ دينٍ غيرِ دينِ الـ ـرعاعِ فما بِهِ أبداً ندينُ
بحيَّ على الصبوحِ الدهَر ندعو وإبليسٌ يقول لنا أمينُ

---

(١) ديوان أمية بن أبي الصلت الأندلسي ، تحقيق : عبد الله محمد الهوني ـ دار الأوزاعي للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت . ط ١ ، ١٩٩٠م ، ص ١٤٧ .

فيـــا شـــهرَ الصـــيامِ إليـــكَ عنّـــا إليـــكَ ففيـــكَ أكفـــرُ مـــانكونُ[1]

وعلى الرغم من أن الأبيات السابقة كانت السبب المباشر في مقتل قائلها كما يُروى[2] فإن هذا المنحى الشعري في الأندلس كان ينم على مسلك مجوني عبثي ـ على العموم ـ وندر أن يعبّر عن عقيدة إلحادية أو زندقة حقيقية . وآيةُ ذلك أن ابن طلحة هذا المشهور بالمجون والخلاعة «كان شديد التهور ، كثير الطيش ، ذاهباً بنفسه كلَّ مذهب»[3] ولم يوسم بالزندقة أو الإلحاد ، وإن تماجن بهما ، وربما عزّر مانذهب إليه في شأن هذا النزوع هذا الحوار الذي دار بين ابن سعيد وأحد شعراء الأندلس الماجنين وهو عبد الله اللوشي تعليقاً على مقطوعة ماجنة للشاعر قال فيها :

«لاتفـــوّتْ ســـاعةً مـــن كـــأسِ خمـــرٍ وعشـــيقَهْ
واجتنِـــبْ ماســـخرتْ جهـــ ـــلاً لـــه هـــذي الخليقَـــهْ
رغبُـــوا في باطـــلِ زو رٍ بزهـــدٍ في الحقيقَـــهْ
لـــيس إلاّ مـــاتراهُ أنـــا أدرى بالطريقَـــهْ

فقال أبو عمران موسى بن سعيد له : ماهذا الاعتقاد الفاسد الذي لا ينبغي لأحد أن يصحبك فيه؟ فقال : هذا قول لافعل ، وقد قال الله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾[4]. وضمن

(١) عمارة . دكتور السيد أحمد ، شعر بني أمية في الأندلس حتى نهاية القرن الخامس الهجري . جمع وتوثيق ودراسة . مكتبة النهضة المصرية ـ ط ١ ، ١٩٩٥م ، ص١٣٦ ، ونفح الطيب ٣٠٩/٣، ٣١٠ .

(٢) انظر : نفح الطيب ٣٠٩/٣-٣١٠، وتظهر الرواية أيضاً أن السبب البعيد لمقتله خصومة شخصية بينه وبين ابن هود ، وكان كاتباً لديه ، فاستغل استهتاره هذا فأرسل إليه مَن قتله إرضاءً للعامة .

(٣) انظر : نفح الطيب ٣٠٧/٣ .

(٤) نفح الطيب ٥٠٩/٣، ٥١٠ . والآيتان الكريمتان من سورة الشعراء : ٢٢٥، ٢٢٦.

هذا المسلك أيضاً رأينا لسان الدين بن الخطيب ـ وهو من هو صلاحاً واستقامة ونزوعاً صوفيًّا ـ يقتفي طريقة أبي نواس في الإلمام بالدير ، والتماس الخمر من الرهبان ، وإعلان إطاعة شيطان الشهوة . مما يُعد محض تقليد فني بعيد عن ملابسة الزندقة . يقول لسان الدين : ((وقلتُ في أسلوب الحسن ابن هانئ :

وديرٍ أنَخْنَا في قرارتِهِ العِيسَا ... بحلّةِ رهبانٍ إلهُهُم عيسى

وقُلْنَا بنو سُبلٍ جوانحُ للقِرى ... فقال زعيمُ القوم رَحْبًا وتأنيسا

فقلنا هواءُ الشامِ غالَ نفوسَنَا ... فهل لكَ في شيءٍ يُنفّسُ تَنفيسا

فقالَ أخمرٌ وهيَ شيءٌ محرَّمٌ ... عليكم لبئسَ المسلمون إذَنْ بِيسَا

فقُلْنَا دَعِ الإنكارَ إنّا عصابةٌ ... يُطيعون فيما تشتهي النفسُ إبْليسَا))[1]

٢- الغزل بالمذكر :

وتبرز ظاهرة الغزل بالمذكر عنصراً جديداً من عناصر الشعر المجوني ، وقد شاعت هذه الظاهرة في الشعر المشرقي المحدث بدءاً من العصر العباسي، فحاكاها محدثو الأندلسيين ، كما اقتضت البيئة الأندلسية المتحضرة وجود هذه الظاهرة بما شرع يضطرب فيها من مجالس اللهو والشراب ، وما يتصل بها من سقاة وغلمان مع ضعف الوازع الديني والخلقي بين تلك الفئات ، واستسلامها إلى رغباتها الشاذة المنحرفة[2] . على أن كثيراً من نماذج هذا الشعر لا تعبر

---

(١) ديوانه ٢/٧٢٠، ٧٢١ .

(٢) لايخفى أنه ليس كل غزل أتى بصيغة التذكير يعني غزلاً بالمذكر ، فكثيراً ماكان غزلاً بالمرأة ، لكن حين يذكر اسم الغلام ، أو مفاتنه الخاصة بالذكور كالعذار وغيره تتأكد هذه الظاهرة الشعرية ، كما تتأكد حين يتغزل الشاعر بغلام ذي مهنة بعينها مستغلاً طبيعة هذه المهنة في إبراز الشكوى من هوى ذاك المحبوب . فبرز التغزل بغلام حائك . انظر : المغرب ٢/٣٥٢ ، وآخر نجار . انظر : المغرب ٢/٣٥٢ ، وثالث خياط . انظر : الذخيرة ١/٤ : ٢٨٦ .

عن سلوك وواقع عملِيَيْن ، بل سلك شعراؤها هذا المسلك بدافع التظرف وإبراز المقدرة على النظم في هذا الفن ، وقصد المداعبة والتندر في مجلس الأنس .

واتسعت دائرة هذا الفن فشملت مختلف فئات المجتمع حتى الحكام ، فلم يتحرج بعض الأمراء ووجوه المجتمع من الخوض فيه حين كانت تجمح بهم نشوة الشراب ، وتستبد بهم متعة المجلس . فها هو ذا الأمير هشام ابن عبد الرحمن الأوسط يتغزل بغلامه الأسود «ريحان» مشيراً إلى أنّ وجوده من مكملات جو الأنس والمتعة . يقول :

أحبُّكَ ياريحانُ ماعشتُ دائماً ولو لامَني في حبّكَ الإنسُ والجانُ

على أنه لم يكمل الظرفَ مجلسٌ إذا لم يكن فيه من الراحِ ريحانُ[1]

وأقبل الشعراء من حاشية الحاكم وجلسائه على هذا الفن إرضاءً للحاكم ، وسعياً إلى استكمال بهجة المجلس . من ذلك ماصنعه عبد الله بن عاصم جليس الأمير محمد بن عبد الرحمن حين جمعه بالأمير مجلس شراب ضم غلاماً ساقياً حسن المحاسن والأخلاق ، وقد حثّه الأمير على ارتجال الشعر بإشارته إلى الغلام أن يلحّ في سقيه ويؤكّده ((فلما أكثر رفع رأسه إليه وقال على البديهة :

ياحسنَ الوجهِ لاتكنْ صَلِفًا مالحِسَانِ الوجوهِ والصَّلفِ

تحسنُ أن تحسنَ القبيحَ ولا ترثي لصبٍّ متيّمٍ دنِفِ

فاستبدع الأمير بديهته وأمر له ببدرة ، ويقال إنه خيّره بينها وبين الوصيف ، فاختارها نفياً للظنّة عنه))[2]. ولعل في العبارة الأخيرة ما يعزّز كون هذا الفن ـ في أحيان كثيرة ـ محض مذهب فني لا يعبر عن سلوك عملي ، وإنما هو ضرب من الدعابة والتظرف،أو إظهار المقدرة على النظم في هذا المذهب.

---

(١) نفح الطيب ٥٧٩/٣ .

(٢) نفح الطيب ٢٤٨/٣ .

وبمرور الزمن أخذ هذا الفن يشتدّ ويتسع بين العامة والخاصة ، وتراوحت دلالاته بين محض التظرف والتماجن ، والتعبير عن واقع حقيقي ورغبات شاذة . واشتهر بعض الغلمان بالجمال الفائق وبإقبال الشعراء على التغزل بهم . من أولئك موسى بن عبد الصمد ، وكان مليح إشبيلية في مدة منصور بني عبد المؤمن ، وكانت قلوب الشعراء تهفو إليه وتحوم أشعارهم حول بديع حسنه وجحيم هواه ، وحين مات تفجع عليه أبو العباس أحمد الكساد قائلاً فيه :

رُدَّ إلى الجنّـــــة حوريُّهـــــا وارتفـــع الحســـنُ مـــن الأرضِ
وأصـــبح العشـــاقُ في مـــأتمٍ بعضُـــهم يبكـــي علـــى بعـــضِ[1]

ولم يقتصر هذا الفن على مجالس الأنس والشراب ، بل عرف طريقه أيضاً إلى ميادين العلم ووجوه المجتمع الذين لم يتحرجوا عن الإسهام فيه على سبيل التظرف . من هؤلاء أبو جعفر أحمد بن يحيى الحميري الوزعي (- ٦١٠هـ) ((خطيب جامع قرطبة المصدَّر به لإقراء النحو وفنون الأدب ، المشهور بالظرف واللطافة . كان يعشق غلاماً اسمه عيسى ، فقرأ عليه غلام اسمه محمد ، فمال إليه وقال :

تبدّلتُ مـــن عيســـى بحـــبّ محمـــدٍ هديتُ ولـــولا اللهُ ماكنـــتُ أهتـــدي
وما عـــنْ مـــلالٍ كـــانَ ذاكَ وإنّمـــا شريعةُ عيسى عُطّلـــتْ بمحمّـــدِ))[2]

ومن أولئك علي بن جابر الدباج (- ٦٤٦هـ) وكان شيخاً جليل القدر مشهوراً بالفضل ، مقدّماً للصلاة ((وهو مع هذا في نهاية من اللطافة والمداعبة للغلمان والتندير في شأنهم)) [3].

---

(١) المغرب ٢٨٨/١ .
(٢) المغرب ٢٢٠/١ .
(٣) المغرب ٢٦١/١ .

وتبدّى هذا الفن الشعري بغزارة في الموشح ، فأفاض الوشاحون في التغزل بالغلمان والتغني بمفاتنهم ، فبرزت أسماء غلمان كثر هام بهم الشعراء[١] ، ونقل الوشاحون معاني الغزل النسوي إلى هذا الضرب من الغزل ، فشبّهوا الغلام بالفتاة ، والرشأ ، والظبي ، والقمر ، وفُتنوا بالنظرات القاتلة ، والقوام الممشوق ، والخصر النحيل ، والرضاب العذب[٢] ، فضلاً عن تغنّيهم بالعذار وغيره مما يتصل بالذكور . من ذلك قول ابن الخباز في أحدهم :

قـــد حكـــى الـــدرَّ ثغـــرُهُ
والـــــدماليجَ خصـــــرُه
رشـــــأ جـــــلَّ قـــــدرُهُ
قـــد ســـبى الخلـــقَ ســـحرُهُ
كفتـــــــاةٍ بـــــــهودج
ذاتِ عقـــــــدٍ ودملـــــج [٣]

وتجاوز هذا الفن في بعض الأحيان حدود التظرف والتماجن ، وهبط إلى حضيض التهتك ، والانغماس في حمأة الفجور والرغبات الشاذة المنحرفة ، فقد أورد ابن بسام في الذخيرة مطارحة شعرية ماجنة بين مجموعة من الأدباء تتضمن تلميحات إلى هذا السلوك الآثم[٤] . ولم يتحرج ابن حزمون مثلاً في موشحاته من الوقاحة في الحديث عن الغلمان ، والإسفاف في ذكر الصور

---

(١) من هذه الأسماء عمر . انظر : ديوان الموشحات الأندلسية ٤٧/١ ، وعبد الملك ٩٣/١ ، وعيسى ١١٠/١ ، وأحمد ٨٢/١، ٨٣ ، وأبو الحسن ١٢١/١ ، ومحمد ١١٨/١ ، وعمران أبو الوليد ١٢٧/١ ، ويحيى ١٠١/٢ ، وابن عبيدة ١٩٧/١ .

(٢) انظر : هذه المعاني في ديوان الموشحات الأندلسية ٤٦/١، ٤٧ ، ٨٢، ٨٣ ، ٩١، ٩٢، ٩٣ ، ١٠٩، ١١٠، ١١١ ، ١٢٦، ١٢٧، ١٢٨، ١٠١/٢ .

(٣) ديوان الموشحات الأندلسية ١٢٢/١ .

(٤) انظر : الذخيرة ٢/٢ : ٨٠٦، ٨٠٧ .

المبتذلة ، والألفاظ والتعبيرات الصريحة مما يأنف الذوق من ذكره[1] ، ومما ينمّ على وجود ذاك السلوك المنحرف في مجتمع الأندلس في كنف فئة من المجان استسلمت لنوازعها الآثمة ، متجاهلة القيم الدينية والخلقية .

ولكن هذا الفن خرج من حدود التظرف والتماجن والتهتك ليكتسب جدية ووقاراً ، ويغتني بنفحات سامية من العذرية ومشاعر الحب الملتاع مترفعاً عن حمأة الحواس ودرك اللذة الحسية . وهذا ماأضفى على هذه الظاهرة خصوصية ولوناً فارقاً في الشعر الأندلسي ربما عزّ وجوده في شعر المشرقيين الغلامي . وبرز هذا المسلك في شعر بعضهم[2] . لكنه اكتسب أروع ألقه وأعذب قوافيه لدى ابن سهل الإشبيلي (- ٦٥٩هـ) الذي منحه قسطاً وافراً من شعره متغنياً بحبه للفتى الوسيم « موسى » ، مشيعاً فيه معاني التذلل للمحبوب ، وشكوى الحرمان ، والتلذذ بالألم على نحو يضاهي فيه شعراء العذرية العرب في الصدق الفني والتدفق العاطفي ، مازجاً ذلك بظلال ثقافته الواسعة في الاستعانة باسم الغلام المحبوب لاستيحاء المعاني الدينية ، ولا سيما قصة النبي موسى عليه السلام ، واستغلال جزئياتها لتضمين معاني الحب واللوعة . يقول في موساه :

صبٌّ تحكَّمَ كيفَ شاءَ حبيبُهُ ... فغدا وطولُ الهجرِ منه نصيبُهُ

مهما رنَا ليراكَ حجّبَ عينَهُ ... دمعٌ تحيَّرَ وَسْطَها مسكوبُهُ

وإذا تناوَمَ للخيالِ يصيدُهُ ... ساقَ السهادَ سياقُه ونحيبُهُ

غُفِرَتْ جرائمُ لحظِهِ لسَقَامِهِ ... فسَطَا ولم تُكتَبْ عليهِ ذنوبُهُ

---

(١) انظر : موشحات ابن حزمون وهذا الضرب الشاذ من الغزل في ديوان الموشحات ١٢٥/٢-١٣٣ ، وانظر : ٣٤٤/١، ٣٤٥ ، ١٢٧/١ .

(٢) انظر : على سبيل المثال المغرب ١٠٧/١ ، ٤٣٨/١ ، وشعر وموشحات الوزير ابن زمرك . تقديم حمدان حجاجي ، ص٣٢ .

ماضرَّ موسى لو يشقُّ مدامعي بحراً ليغرقَ عاذلي ورقيبُهُ [1]

٣- منازع فريدة في مديح المحدثين :

برزت في مديح المحدثين الأندلسيين مناحٍ فريدة تجلت في اقتراب معاني المديح من معاني الغزل ، وفي مديح نساء الأندلس ذوات الشأن ، فقد تغنّى الشاعر المحدث بمجالي الحسن والرقة في الممدوح ، وتخفّف من التكلف المعهود في شعر المديح . يقول ابن خفاجة متغنياً بمفاتن هذا الممدوح المرابطي :

مليكٌ تبسَّم ثغرُ المنى بمَرْآهُ وامتدّ خطوُ الأمَلْ
يشدُّ اللثامَ على صفحةٍ ترى البدرَ منها بمرقى زُحَل
فلم أدرِ والحسنُ صنوٌ له أ أبدأ بالمدحِ أم بالغزلْ [2]

وتبدت هذه الظاهرة في الموشح أشد جلاءً حين جنح الوشاح إلى رفع الكلفة بينه وبين الممدوح ، فاقتربت المدحة من قصيدة الغزل ، واصطبغت سمات الإعجاب بأمارات الحب والهوى مما أوقع القارئ في حيرة ، فلا يكاد يميز المديح من الغزل . يقول الدكتور عبد العزيز الأهواني في ذلك : ((إنّ مديح كثير من الأندلسيين في التوشيح تأثر بالغزل وامتزج به ، فكانوا يؤثرون في صفات الممدوح أقربها إلى صفات المحبوب ، وهي الصفات التي تخفُّ على النفس وتتجه إلى الشمائل الإنسانية المحببة في الممدوح بحيث يشتبه الأمر أحياناً على القارئ أهو مديح أو غزل))[3] . من ذلك قول ابن زهر يترنم

---

(١) ديوانه ، قدم له دكتور إحسان عباس دار صادر بيروت ، ١٩٨٠م ، ص٨٣، ٨٤ . والسياق : النهج عند الموت . وانظر : نماذج أخرى من غزله في موسى ٧٤- ٧٥- ٧٦- ٧٧- ٧٨- ٧٩- ٨٠- ٨١ ، ٨٢- ١٠٢-١٠٣- ١١٠- ١١٣ وغيرها كثير .

(٢) ديوانه ص ١٠٢ .

(٣) ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار في الشعر ، ملتزمة الطبع والنشر مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٢م ، ص٢١٢ .

بمحاسن المحبوب الجسدية مستحضراً عناصر الغزل الأنثوي من وجهٍ مشرق ، وقوام ممشوق ، وعذول لاحٍ . انظر قوله :

هـــو الحســـنُ لا أختـــارُ مطلوبـــــاً عليـــــهِ
وجـــهٌ تشـــرقُ الأنـــوارُ علـــــى صـــــفحتيهِ
وتســـــبقُ الأبصـــــارُ إليـــــهِ إليـــــهِ
وقـــدّ كغصـــنِ البـــانِ في حقـــــفٍ مهيـــــلِ
فـــذاك الـــذي يلحـــاني عليـــــه عـــــذولي [1]

كما برزت هذه الظاهرة على نحو أجلى في الزجل الأندلسي حين يقترب الزجال أكثر من ميادين الغزل والجرأة فيه . يقول ابن قزمان :

حبيبي وشـــكي لـــسْ عنـــك صَـــبَرْ أنتَ هو ســـلطان البـــيض والشـــقَرْ
يـــتلالا خـــدّك ولَـــسْ فيـــه قَمَـــرْ ويزهر عنقك ولَـــسْ فيـــه حُلَـــى [2]

العناية بمديح النساء :

وحظيت بعض سيدات الأندلس بمديح الشعراء المحدثين ، ولا سيما في عصر المرابطين الذي تألقت فيه شخصيات نسوية ذات شأن وسيادة ، ونصيب ثقافي وأدبي كالسيدة مريم زوج تميم بن يوسف بن تاشفين والي غرناطة ، وكانت أديبة فاضلة تعنى بالأدب والشعر ، وفيها يقول ابن خفاجة :

مشهورةٌ في الفضـــلِ قِـــدْماً والنُّهـــى والجـــودِ شـــهرة غُـــرّةٍ في أدهـــمِ
تولي الأيادي عن يَـــدٍ نَـــزَل النـــدى منـــها بـــمنـــــزلةِ المحـــبّ المكـــرَمِ

---

(١) ديوان الموشحات الأندلسية ٢/١٠٠ .

(٢) الأهواني دكتور عبد العزيز . الزجل في الأندلس . معهد الدراسات العربية العالية ـ القاهرة ص ١٥٢ ، وانظر : نماذج من هذا المنحى الزجلي في الزجل في الأندلس ١٥١، ١٥٢، ١٥٥ .

حملَ الثناءَ بـــها القــريضُ وإنمــا حملَ الحديثَ روايــةً عــن مســلمِ[1]

أما السيدة حواء زوج القائد المرابطي سير بن أبي بكر ، فكانت ذات حظ من الثقافة والأدب ، راعية الثقافة . مدحها الأعمى التطيلي مشيداً بمزايا الفضل ، والجود ، والدين ، والشرف الرفيع ، يقول :

أَمَا رأيْتَ ندى حــوّاءَ كيــف دَنَــا بالغيثِ إذْ كادَ يأتي دونَــهُ العَطَــبُ

دنيــا ولا تــرفٌ ديــنٌ ولا قشــفٌ مُلْــكٌ ولا سَــرَفٌ دَرْكٌ ولا طلــبُ

بــرٌّ ولا ســقمٌ عــيشٌ ولا هــرمٌ جــدٌّ ولا نَصَــبُ ورْدٌ ولا قــربُ

مليكــةٌ لايــوازي قــدْرَها ملــكٌ كالشمسِ تصغرُ عن مقدارِها الشهبُ[2]

٥- شعر الطبيعة :

فُتن محدثو الأندلسيين بحديث الطبيعة ، فأكثروا منه ، ومزجوا حديثهم عنها بمشاعرهم ، ونظروا إليها من خلال ذواتهم ، والتفتوا إلى وصف المظاهر الطبيعية الدقيقة ، فكان لهم قدر عظيم من شعر الطبيعة عُدّ من أبرز مناحي التفرد الأدبي الأندلسي .

وأفضى إلى ازدهار فن الطبيعة في الأندلس مشاعر حب الوطن والتعلق به ، ومشاعر الشوق والحنين إليه حين فراقه ، فامتزج شعر حب الوطن والحنين إليه بالتغني بجمال طبيعته الآسرة . كما أسهم جمال الطبيعة الأندلسية ، وشيوع مجالس الأنس والشراب في شيوع شعر الطبيعة وازدهاره . وبلغ من شغف محدثي الأندلس بحديث الطبيعة أن استبدلوا به المقدمة الغزلية[3] ، ولا سيما

---

(١) ديوانه ٩٧، ٩٨ .

(٢) ديوانه تحقيق : دكتور إحسان عباس ١٦، ١٧ .

(٣) انظر : أمثلة من هذه المقدمات في النفح ٦٥٥/١ ، وابن حبيب الحميري . البديع في وصف الربيع . حققه وكتب الدراسة وعلق عليه دكتور عبد الله عبد الرحيم عسيلان . دار المدنى للطباعة والنشر والتوزيع ـ جدة ، ١٩٨٧م ، ص : ١٤- ١٥- ٢١- ٢٨- ٢٩، ٣٠ ، ٤٤ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٧٩ ، ٨٣- ٨٤ ، ١٢٣- ١٢٤ ، ١٣٢- ١٣٣ .

في المدائح ، بل سرت صور الطبيعة ومعانيها في أجزاء القصيدة كلها[١] ، وامتزج حديث الطبيعة بموضوعات شعرية أخرى كالرثاء[٢].

وفي سياق الكلف بالطبيعة برزت لدى الأندلسيين ظاهرة المفاضلة بين الأزهار متأثرين في هذا المنزع بابن الرومي في مذهبه المعروف في تفضيل النرجس على الورد ، فخالفوه إذ انتصروا للورد على النرجس ، وجاروه في اعتماد الأسلوب المنطقي في إيراد الحجج ، ودفع أقوال الخصم ، وكانت هذه المفاضلات تلبي ميلهم إلى الجدل والمقدرة العقلية ، كما كانت مظهراً من مظاهر المنافسة الأدبية الأندلسية ـ المشرقية لما تنطوي عليه من رغبة في تحدّي شعراء المشرق ومخالفتهم في بعض مناحيهم الفنية . من ذلك قول أبي بكر بن القوطية مقارناً بين الورد والنرجس معلياً من شأن الورد ، يقول :

كسفَتْ خدودُ النرجسِ المصفرّ من حسدٍ وقد يذوي العدوُّ الحاسِدُ
واصفرَّ حتى كاد أنْ يقضي أسًى لمَّا رأى الوردَ الذي هو واردُ
لو لم يكنْ للوردِ إلاّ أنَّهُ يفنى ويبقى ماؤُهُ المتعاهدُ
والنرجسُ المصفرُّ ليس بنافعٍ ميتاً ولا في الروضِ إذْ هو وافِدُ[٣]

واتسم شطر عظيم من شعر الطبيعة الأندلسي بالميل إلى ابتكار الصورة ـ ولا سيما التشبيه ـ ، وإيثار الغرابة فيها أكثر من العناية بإبراز العمق العاطفي ، أو الجانب الانفعالي أمام المشهد الطبيعي مما أفضى إلى أن توسم صورهم بالجمود والبرود . ومن نماذج ذلك قول أبي بكر الكاتب يصف البهار :

وقد بدَتْ للبَهَارِ ألويةٌ تعبقُ مِسْكاً طلوعُها عَجَبُ

---

(١) انظر : أمثلة على ذلك ديوان ابن خفاجة ص ١٨٤ ، ونفح الطيب ٦٥٦/١ .
(٢) انظر : ديوان ابن خفاجة ص ١٧٨، ١٧٩ ، ٢٢٧ .
(٣) انظر : القصيدة في البديع في وصف الربيع ص ٧٦، ٧٧، وابن القوطية ، شعر أبي بكر ابن القوطية صنعة هدى شوكة بهنام ـ مجلة المورد ـ دائرة الشؤون الثقافية والنشر ـ بغداد ـ العدد الأول ١٩٨٥م . مج١٤ ، ص٩٥، ٩٦ .

رؤوسُـــــها فضّـــــةٌ مؤرّقـــــةٌ تشـــرقُ نـــوراً عيونُهـــا ذَهَـــبُ
فهـــو أمـــيرُ الريـــاضِ حـــفَّ بـــه من سائرِ النّـــوْرِ عســـكرٌ لَجِـــبِ[1]

ولكن الشاعر الأندلسي كان أحياناً يستلهم مشاعره إزاء مشهد الطبيعة بعيداً عن طلب الصورة المبتكرة ، ليقترب من الامتزاج بالطبيعة والتعبير عن ذاته من خلالها ، أو الحديث عنها من خلال ذاته ومشاعره . وبرز هذا الاتجاه في أشعار الكثير من شعراء الأندلس[2] ـ بنسب مختلفة ـ حتى وصل إلى قمته لدى ابن خفاجة في قصيدتين له في الجبل ، وثالثة في القمر ؛ إذ اتخذ من الجبل والقمر رمزين له يتحدث عن مشاعره من خلالهما ، ومن ثَمَّ يستقي العظة والعبرة منهما ، فغدت الطبيعة عنده نفسَه في إحساسه بالحياة ورؤيته للكون[3].

يقول في الجبل :

فما خفْقُ أيكي غـــيرُ رجفـــةِ أضْـــلُعٍ ولا نوحُ وُرْقي غيرُ صـــرخةِ نـــادبِ
فحتى متى أبقـــى ويظعـــن صـــاحبٌ أودّعُ منـــه راحـــلاً غـــيرَ آيـــبِ
فأســـمعَني من وعظِـــهِ كـــلَّ عـــبرةٍ يترجمُهـــا عنـــهُ لســـانُ التجـــاربِ

---

(١) الحميدي . جذوة المقتبس ص ٢٦٧ .

(٢) انظر : نماذج من هذا المنحى في شعر عبد الرحمن الداخل . البيان المغرب ٢/٩٠ ، والحلة السيراء ١/٣٧ ، وشعر علي بن حصن في ابن سعيد . رايات المبرزين ص٥١، ٥٢ ، وشعر الرمادي في البديع في وصف الربيع ص ١٢٦، ١٢٧ ، وشعر ابن حمديس في ديوانه ص ١٨٥ ، والمصحفي في الحلة السيراء ١/٢٦١، ٢٦٢ .

(٣) غدا الجبل لدى ابن خفاجة شخصاً وقوراً حكيماً يتأمل في حقائق الحياة ، وتجتمع لديه متناقضات الدنيا ومفارقاتها ، يهتز وجدانه أسى ، وترتجف ضلوعه انفعالاً لفقدان صحبه وبقائه وحيداً بعدهم ، وفي النهاية ملهماً للعبرة والعظة ، والصلابة والقوة . أما القمر فكانت أحواله المتغيرة في نقصه واكتماله ، وسموه وانحداره باعثاً على التدبر في أحوال الحياة ، ومصير الإنسان الحتمي فيها . انظر : قصيدته في القمر في ديوانه ص ١٣٠، ١٣١ .

فسلّى بِمَا أبْكَى وسرّى بـــما شَـــجَا وكان على ليلِ السُّرى خيرَ صاحبِ[1]

وتفرد شعر الطبيعة الأندلسي بالالتفات إلى مظاهر الطبيعة الدقيقة التي لم يُعن الشعراء العرب بوصفها كثيراً ، فتوقف الأندلسيون عند السفرجلة[2] ، والباذنجان[3]، والجوزة[4]، والخرشف[5]، والباقلاء[6]، والمردقوش[7]. فضلا عن وقوفهم عند الزهور والرياحين مفصحين عن دقة في الأحاسيس ، وترف في المشاعر ، وعن جنوح إلى التفرد وبراعة في التصوير . من ذلك قول ابن القوطية في جوزة :

ومطبقـــةٍ لفقَـــيْنِ أحســـنَ مـــاترى كما انطبقَ الجفنانِ يوماً على الكَـــرَى

إذا فتحَتْهـــا مُديـــةٌ قلـــتَ مقلـــةٌ أحدَّ بـــــها فـــتحُ العيـــونِ لتنظـــرَا

وباطنُهـــا مـــن بـــاطنِ الأذنِ خلقـــةً غضـــوناً إذا شـــبهْتَها وتكسُّـــرا [8]

٦- الزهد :

يُعدّ الزهد موضوعاً بارزاً في الشعر الأندلسي المحدث ظهر انقياداً لبواعث

---

(١) انظر : القصيدة في ديوانه ص ٢١٥-٢١٧ . ولابن خفاجة قصيدة أخرى في الجبل تشبه هذه القصيدة في جوّها العام ، وفي بعض معانيها وألفاظها أيضاً . انظرها في ديوانه ص ١٥٠ .

(٢) انظر : قول المصحفي في السفرجلة في الحلة السيراء ٢٦١/١، ٢٦٢ .

(٣) انظر : نفح الطيب ٨٨/٤، ٨٩ . (٤) انظر : رايات المبرزين ص ٥٤.

(٥) انظر : قول ابن شهيد في الخرشف في ديوانه ص ١٤٠ .

(٦) انظر : قول ابن شهيد في الباقلاء أو الفول في ديوانه ص ١٢٧، ١٢٨ . وقول أبي الحسن بن علي فيه أيضاً البديع ص ١٥٩ .

(٧) المردقوش أو المرزنجوش ، أو المرزجوش وهو نبات كثير الأغصان ينبسط على الأرض ، وله ورق مستدير عليه زغب ، وهو طيب الرائحة جدًّا . انظر قول ابن القوطية في مجلة المورد في بحث (شعر أبي بكر بن القوطية). دكتورة هدى شوكة بهنام ص٩٦ .

(٨) شعر أبي بكر بن القوطية ص٩٩ ، ورايات المبرزين ص٥٤ ، واللفق : الشقة في شقتي الملاءة ، وهما لفقان .

عديدة . بعضها ذاتي كمشاعر اليأس في الشيخوخة وما يرافقها من تقوى الله وخشية الموت ، أو النفور من حياة اللهو والمجون التي انغمس فيها المجتمع أو استجابة لنزوع فلسفي ، وبعضها عام كسوء الأوضاع السياسية والاجتماعية في مراحل بعينها من التاريخ الأندلسي .

ومن النماذج الزهدية التي اقتضتها مشاعر الشيخوخة وما يلابسها من سأم ونفور من الحياة الدنيا شعر الغزال الزهدي بعد أن كبر واستشعر النهاية ، فاصطبغ شعره بالمرارة وذكر الموت ورثاء نفسه[1] . ومنها قصائد الممحصات أو المكفرات ، وهي قصائد كان بعض الشعراء ينظمونها في سن الشيخوخة يقابلون بها قصائد كانوا نظموها في اللهو والمجون في صباهم قصداً للتمحيص أو التكفير . ويعد ابن عبد ربه من أوائل من نهج هذه السبيل ؛ إذ نقض كل قطعة قالها في الغزل والصبا بقطعة في الزهد والمواعظ . من ذلك قوله في الشراب والخمر :

ورادعةٍ بأنفاسِ العبيرِ ... مقنّعةِ المفارقِ بالقتيرِ
جلَتْهَا الكأسُ فاطّلعَتْ علينا ... طلوعَ البكْرِ في حُللِ الحريرِ
كأنَّ مزاجَها لمَّا تجلَّتْ ... بصحنِ زجاجِها نارٌ بنورِ[2]

ثم لم يلبث أن أتبعه بذكر الموت :

أتلهو بينَ باطيةٍ وزيرٍ ... وأنتَ من الهلاكِ على شفيرِ
فيا مَن غرّه أملٌ طويلٌ ... يؤدّيه إلى أجلٍ قصيرِ
أتفرحُ والمنيّةُ كلَّ يومٍ ... تريكَ مكانَ قبرِك في القبورِ[3]

---

(١) انظر : ديوانه ص ٤٦ ، ٦١ ، ٧٩ .

(٢) ديوانه : ص ٩٣ .

(٣) ديوانه ص ٩٤ ، وانظر : نماذج أخرى من ممحصاته ص ٦٤-٦٥ ، ٧٠ ، ٨٦ ، ٩٣-٩٤ .

وانتهج هذا النهج أبو بكر العبدري فيما بعد حين كفّر معشراته في الغزل بمثلها في الزهد وشرحها في سفر ضخم أفاد به[1]، وتبدى أثر أبي العتاهية في شعر الزهد الأندلسي على امتداد تاريخه في الإكثار من ذكر الموت ، والتحذير من غرور الدنيا ، وممّن عني بهذا الاتجاه الزهدي ابن أبي زمنين الذي يقول :

الموتُ في كلِّ حينٍ ينشرُ الكفَنَا ونحنُ في غفلةٍ عمّا يُرادُ بنَا

لاتطمئنَّ إلى الدنيا وبهجتِها وإن توشّحْتَ من أثوابِهَا الحَسَنا[2]

وأسفر الانهيار السياسي والتصدع الاجتماعي في العهود التالية ، ولا سيما عهد الطوائف عن نزوع زهدي قوي لدى أشخاص عانوا من وطأة أوضاع المجتمع السيئة ، وأخفقوا في تحقيق مطامحهم الدنيوية . ومن أبرز زاهدي هذه المرحلة أبو إسحاق الإلبيري (- ٤٦٠هـ) وكان معروفاً بالتقوى والصلاح ، يطفو على قصائد ديوانه النَفَس الزهدي العامر بالوعظ ، والتنفير من الدنيا ، ونبذ متاعها الزائل ، والدعوة إلى التوبة ومكارم الأخلاق[3] . ومن نماذج ذلك قوله مستشعراً سطوة المنية وتحفُّزها للفتك بالمرء في كل حين وآن :

تفتُّ فؤادَكَ الأيامُ فَتّا وتنحتُ جسمَك الساعاتُ نَحْتَا

وتدعوكَ المنونُ دعاءَ صدقٍ ألا ياصاحِ أنتَ أريدُ أنتَا

فلو بكَتِ الدِّما عيناكَ خوفاً لذنبِكَ لَمْ أقلْ لكَ قدْ أمِنْتَا[4]

---

(١) انظر : ابن الأبار . التكملة لكتاب الصلة . الجزء الثاني . عني بنشره وصححه ووقف على طبعه السيد عزت العطار الحسيني ـ مطبعة السعادة بمصر ص ٥١١ .

(٢) نفح الطيب ٥٥٢/٣ .

(٣) انظر : عباس . دكتور إحسان . عصر الطوائف والمرابطين ص ١٣٦ .

(٤) ديوانه ، حققه وشرحه وقدم له دكتور محمد رضوان الداية . دار قتيبة ـ ط ٢، ١٩٨١م، ص٢٤-٢٩-٣٢ .

أما ابن العسال (-٤٨٧هـ) أحد شيوخ الزهد في طليطلة فعكف يردّد نغمات النفور من الدنيا واطراح نعيمها الزائل يقول :

انظُرِ الدنيا فإنْ أبـ ... ـصَرْتَها شيئاً يدومُ
فاغدُ منها في أمانٍ ... إنْ يساعدْكَ النعيمُ
وإذْ أبصرْتَها منْـ ... ـكَ على كُرْهٍ تهيمُ
فاسلُ عنها واطّرِحْها ... وارتحلْ حيثُ تقيمُ (١)

وتردُّ بعض هذه المنازع الزهدية إلى الميل الفلسفي لأصحابها ، كشاعر المرية ابن الحداد الذي أنفق عمره في مديح أمرائها بني صمادح ، ثم لم يلبث أن أخرج منها ، ونفض يده من ممدوحيه ، فآثر الابتعاد عن مواطن الملق والنفاق قانعاً بعلمه الفلسفي . يقول :

لزمتُ قناعتي وقعدتُ عنهم ... فلستُ أرى الوزيرَ ولا الأميرا
وكنتُ سميرَ أشعاري سفاهاً ... فَعُدْتُ لفلسفيّاتي سَمِيرا (٢)

٧- الشعر الصوفي :

برز الشعر الصوفي موضوعاً أندلسيًّا محدثاً مع تصاعد النزوع الصوفي في الأندلس ، ولمّا كان هذا الموضوع يفصح في أغلبه عن جانب فكري فلسفي سندرسه لاحقاً ضمن الآثار الثقافية في شعر الأندلس آثرنا أن نقصر الحديث هاهنا على الشعر الصوفي ذي الطابع الروحي الوجداني الصرف دون الفلسفي الذي يغصّ بالأفكار والمصطلحات الصوفية .

ومن نماذج هذا الضرب من الشعر ذي النزوع الصوفي هذه الأبيات لأبي عمر أحمد بن عيسى الإلبيري (- ٤٢٩هـ) الذي يحلّق في روضة الحب الإلهي

---

(١) المقري . نفح الطيب ٢٠٨/٣ .

(٢) ديوانه ، جمعه وحققه وشرحه وقدّم له دكتور يوسف علي طويل ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط ١ ، ١٩٩٠م ، ص ٢٢٠ .

وشرابها الطّهور الذي يشرب منه الصوفي ، فتذكو في نفسه جذوة الشوق إلى قرب الله تعالى ، ويجأر بالدعاء إلى ربه لكشف الحجب عن عينيه . يقول :

شربتَ بكأس الحبِّ من جوهر الحبِّ رحيقاً بكفّ العقلِ في روضةِ الحبِّ
وخامرَ ماءَ الروحِ فاهتزّتِ القُوى قوى النفسِ شوقاً وارتياحاً إلى الربّ
ونادى حثيثاً بالأنينِ حنينُها إلهي إلهي مَنْ لعبدِكَ بالقربِ[1]

وجلي أن هذه الأبيات تفيض بالمواجيد الصوفية المتوهجة ، ومعاني التصوف السنّي دونما إغراق أو غلو في التصوف الفلسفي .

وما تزال حرارة الوجد الصوفي متقدة مع تقدم العصور الأندلسية يعرج فيها الصوفي إلى ذرا سامقة من الأشواق الملتهبة ، والفناء في المحبوب على النحو الذي تعبر عنه أبيات ابن العريف (- ٥٣٦هـ) التي تنضح بالرقة العاطفية ، والافتنان في إبراز صور الحب ومجاليه . يقول :

سَلُوا عن الشوقِ مَنْ أهوى فإنّهم أدنى إلى النفسِ منْ وَهْمِي ومِنْ نَفَسي
مازلتُ مُذْ سكنُوا قلبي أصونُ لهم لحظي وسمعي ونطقي إذْ همُ أُنسي
لأنهضَنَّ إلى حشري بحبِّهمُ لابارك اللهُ فيمَنْ خانَهُمْ فَنَسِي[2]

٨- المديح النبوي :

تبع ذيوع التصوف في الأندلس ذيوع المديح النبوي لما بين التصوّف وهذا الفن من صلة قوية ، فعرف الشعر الأندلسي المحدث المديح النبوي كما عرفه الشعر المشرقي ، بل يخيل إلى المرء أنه لم يقعد شاعر عن الخوض في هذا

---

(١) الذخيرة ٢/١ : ٨٥٠ .

(٢) ابن دِحْيَة ، أبو الخطاب ، المطرب من أشعار أهل المغرب . تحقيق : إبراهيم الأبياري ودكتور حامد عبد المجيد ودكتور أحمد أحمد بدوي راجعه دكتور طه حسين . المطبعة الأميرية . القاهرة ، ١٩٥٤م ، ص٩٠، ٩١ .

الموضوع . ولا سيما في عهود الأندلس المتأخرة . ولقد تفرد هذا الفن في الأندلس في بواعث نشوئه ، وفي قسماته .

شرع المديح النبوي الأندلسي يتسع ويشتد عوده مع اطراد الانهيار السياسي في الأندلس بدءاً من تشتت الوحدة الأندلسية في عصر الطوائف ، واستقواء خطر أعداء الشمال ، واستمر باشتداد الضعف السياسي وتلاحق الانهيار حتى نهاية الأندلس . مما أفضى إلى أن يفزع شعراء الأندلس إلى مديح الرسول الكريم ﷺ طالبين الغوث لوطنهم والنصرة . ولم يعودوا يقنعون بنظم القصائد النبوية وإنشادها في وطنهم ، بل هبُّوا يرسلونها مرفقةً برسائل نثرية إلى القبر النبوي الشريف متضمّنةً وصف مايعانيه قطرهم من خطوب مدلهمة سائلين الغوث والنجدة . من ذلك قول لسان الدين بن الخطيب يعتذر عن عدم زيارته القبر المطهّر بانشغاله بجهاد العدو الجليقي ، لائذاً بالرسول الكريم عليه الصلاة والسلام ، ناشداً العناية والفضل لوطنه المروّع ، متبعاً الشعر برسالة نثرية . يقول شعراً :

وكان بودّي أنْ أزورَ مُبوّأ ... بكَ افتخرَتْ أطلالُهُ ورسومُهُ
عدتْني بأقصى الغربِ عن قربكَ العِدَا ... جَلاَلَقةُ الثغرِ الغريبِ ورومُهُ
أجاهدُ منهُم في سبيلكَ أمةً ... هي البحرُ يعيي أمرُها مَنْ يرومُهُ
فلولا اعتناءٌ منكَ ياملجأَ الورى ... لريعَ حِماهُ واستُبيحَ حريمُهُ
فلا تقطعِ الحبلَ الذي قد وصلْتهُ ... فمجدُكَ موفورُ النوالِ عميمُهُ (١)

والحق أن الظروف الأندلسية المتفردة من بعدها عن الأماكن المقدسة في الحجاز ومهد النبوة ، وانشغالها بجلاد العدو الإسباني عاقت كثيراً من

---

(١) ديوانه هامش ص ٥٥٠ ، رقم ١٣١ نقلاً عن نفاضة الجراب ، وانظر : الرسالة النثرية في نفح الطيب ٦/٣٥٦-٣٦٠ .

الأندلسيين عن تحقيق أمانيهم الغالية في أداء فريضة الحج وزيارة القبر النبوي الطاهر مما جعلهم ينطوون على أسى بالغ وحسرة دفينة ، ويزجون رسائل الشوق وحرق الحنين إلى الجوار الشريف . يقول ابن العريف في ذلك :

شدّوا المطايا وقد نـالُوا المُـنى بِمِـنى وكلهم بـأليمِ الشـوقِ قـدْ باحَـا
يـاراحلينَ إلى المختـارِ مـن مُضـرٍ زرتُمْ جُسُوماً وزُرنـا نحـنُ أرواحَـا
إنّا أَقمْنا علـى شـوقٍ وعـن قـدرٍ ومن أقام على عذرٍ كمَـنْ رَاحَـا[1]

ويتعاظم هذا الوله بالجوار الشريف والتحرق عليه ليغدو هاجساً يدعو الأندلسي إلى تقديم الأعذار لعجزه عن هذه الزيارة الغالية[2] ، ولوم النفس على التخلف عن الركب الحبيب . يقول الفازازي (– ٦٢٧هـ) معنّفاً نفسه على انشغالها بالدنيا عن ذلك المقصد العظيم :

الناسُ قـد رحلـوا وأنـتَ مقـيمُ ودُعـوا وأنـت محجّـبٌ محـرومُ
وتُـلام في تـركِ الحجـازِ فتنـثني عـن غـيرِ معـذرةٍ وأنـتَ ملـومُ
وإذا بـدا لـكَ درهـمٌ في جلّـقٍ بـادرْتَ تقعـدُ نحـوَهُ وتقـومُ[3]

وعلى الرغم من أن المديح النبوي الأندلسي أفاض في معاني المديح النبوي المعهودة من ذكر مناقب الرسول عليه الصلاة والسلام ، وتعداد معجزاته وهدايته للناس ، وشفاعته لهم ، وذكر عظمة المولد النبوي فقد لاح في بعض المدائح الأندلسية الطابع الفلسفي في قضية النبوة ، ولا سيما فكرة الحقيقة المحمدية التي وُجدت منذ الأزل واستقطبت الوجود كله ، فغدا النبي بالمفهوم

---

(١) نفح الطيب ٤/٣٣١ .

(٢) انظر : الفازازي ديوان الوسائل المتقبلة . مطبعة المنار ـ تونس ، بلا تاريخ ، ص ٥٠ . وانظر : ديوان لسان الدين ٢/٥٥٠ . هامش رقم (١٣١) نقلاً عن نفاضة الجراب .

(٣) آثار أبي زيد الفازازي الأندلسي . تقديم وتحقيق عبد الحميد عبد الله الهرامة . دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت ـ دمشق . ط ١، ١٩٩١م . ص ١٦٦، ١٦٧.

الفلسفي الصوفي أصل الوجود وسبب الكون[1]. وأكثر لسان الدين بن الخطيب من الحديث عن هذه المسألة في كتابه (روضة التعريف) [2] ، وظهرت على قلة في شعره النبوي . فها هو ذا يقرّر أن الله تعالى في الأزل قدّم النبي العظيم على الرسل جميعاً وإن أخّر بعثه ، ويذهب إلى أن النبي علة الكون ومقصده الأسمى ، وسرّ مظهره الذي يميز الهداية من الضلال ، ويرى أنّ للذات المحمدية أو النبوية وجوداً في عالم الأسرار ، وفي عالم الحس . ففي عالم الأسرار تجتلي السنا الإلهي ، أما في عالم الحس فتتبوأ مقام هداية البشر وشفاء عللهم ، وأن هذه الذات العظيمة تسمو على التجلي بالرسم البشري لولا اصطفاء الخالق لها لغرض الهداية . يقول :

وعلّةُ هذا الكونِ أنتَ وكلّما ... أعادَ فأنتَ القصدُ فيه وما أبْدى
وهل هو إلا مظهرٌ أنتَ سرُّهُ ... ليمتازَ في الخلقِ المُكبُّ من الأَهْدَى
فمِنْ عالَمِ الأسرارِ ذاتُك تجتلي ... ملامحَ نورٍ لاحَ للطورِ فانهدّا
وفي عالمِ الحسّ اغتديْتَ مبوّأً ... لتشفي مَنْ استشفى وتهدي مَن استهدى
فما كنتَ لولا أنْ تبثَّ هدايةً ... من اللهِ مثلَ الخلقِ رسماً ولا حَدّا [3]

واكتسبت ليلة المولد في الأندلس أهمية خاصة ولا سيما في عصر غرناطة ، فغدا تقليداً أن يُحتفل بها كل عام احتفالاً رسمياً ، وكان الشعراء يتوفرون على نظم المدائح النبوية لإنشادها بين يدي السلطان في ذاك اليوم[4] ، ودعيت هذه

(١) انظر : ابن الخطيب لسان الدين . روضة التعريف بالحب الشريف . عارضه بأصوله وعلق حواشيه وقدّم له محمد الكناني . الجزء الأول- دار الثقافة . الدار البيضاء . ط١، ١٩٧٠م ، ص١٦٠ .

(٢) انظر : ١/١٤٧، ١٤٨ ، ١٦٠، ١٦١ ، ٢٥٥-٢٥٨ .

(٣) ديوانه ١/٣٤٨، ٣٤٩ . وانظر : هذه المعاني في تخميس ابن الجنان في مدح النبي ﷺ في نفح الطيب ٧/٤٣٣ .

(٤) انظر : مظاهر احتفال السلطان أبي حمّو موسى صاحب تلمسان بليلة المولد النبوي في نفح الطيب ٦/٥١٣-٥١٦ .

القصائد «المولدية» ، ووُسِمَ هذا الفن المتفرع عن فن المدائح النبوية باسم المولديات أو الميلاديات . وعني لسان الدين بن الخطيب بهذا المنحى عناية خاصة ، فنظم كثيراً من هذه المولديات التي كان يستهلها بوصف لواعج الشوق إلى الحجاز ومرابع النبوة ، ثم يترنم بذكر فضائل الرسول عليه الصلاة والسلام العظيمة ، ومعجزاته الباهرة إلى أن ينهي القصيدة بمديح السلطان الذي أقام ذاك الحفل . ولعل هذا التقليد أسهم في نشاط هذا الفن في الأندلس وفي التفنن فيه ، فنظمت فيه فضلاً عن القصائد التقليدية المخمسات[1] ، والمسدسات[2] . ومن نماذج هذه الميلاديات قول عبد الله بن لسان الدين بن الخطيب ـ بعد حديث الحنين إلى الركب الحجازي ، ومديح الرسول الكريم ﷺ ـ يلهج بعظمة هذه الليلة متصلاً بالثناء على السلطان منوّهاً بخلقه الكريم ، وذبّه عن حياض الدين والوطن :

لله منـــها ليلـــةٌ أضـــحى بـــــها ... شـــمسُ الهدى لأولي الهدى منظومَـــا

أبـــداً أمـــيرُ المســـلمينَ أعـــدّها ... بدعاً من القصرِ الكريـــمِ جســـيما

ملـــكٌ أقـــامَ اللهُ منـــه لخلقـــهِ ... مـــولى رؤوفـــاً بالعبـــادِ رحيمـــا

يحمي ذمارَ المســلمينَ مـــن الـــردى ... ويبـــيحُ ربعـــاً للعِـــدَى وحريـــما

أحيـــا بـــه اللهُ الخلافـــةَ بعـــدَما ... كانَتْ بأطبـــاقِ التـــرابِ رميمـــا[3]

٩- النقد الاجتماعي والأخلاقي :

وهو من الموضوعات التي انصرف إليها شعراء الاتجاه المحدث ، إذ أفصح هؤلاء عن مواقفهم إزاء تقلبات عصرهم وسلوك الناس في مجتمعهم الذي يمور بالصراع والاضطراب أغلب عهوده ، وأماطوا اللثام عن الأمراض

---

(١) انظر : مخمسات ابن الجنان ، وابن سهل الإسرائيلي ، ومالك بن المرحل ، وأبي العلاء إدريس بن عبدوس القرطبي ، وأبي العباس أحمد بن القاسم الإشبيلي الشهير بابن القصير في نفح الطيب ٧/٤٣٢-٤٣٨، ٤٤١، ٤٤٥، ٤٥٣ ، ٤٦٨- ٤٧٠ .

(٢) انظر : هذه المسدسات في نفح الطيب ٧/٤٧٠-٤٧٩ ، و ٥١٣-٥١٧ .

(٣) نفح الطيب ٧/٢٩٩ .

الاجتماعية التي أصابت الكثيرين في سعيهم إلى الكسب المادي ، وتحدثوا عن زلزلة القيم ، وانحطاط العلاقات الاجتماعية بين الناس إلى درك التهالك على المنفعة . ولا جرم أن تلك الصور الاجتماعية القاتمة تحمل دلالة واقعية ، لكن الشاعر الأندلسي مزجها بظلال نفسيته المنهارة ، وخلع عليها من تشاؤمه ماجعلها أكثر حدة وقسوة وسوداوية . ولقد تبدت هذه المواقف النقدية بمظهرين : السخرية والحدة .

ولعل الشاعر يحيى الغزال من أوائل الشعراء الأندلسيين الذين شغلوا بنقد مظاهر الخلل الاجتماعي والأخلاقي في مجتمعه ، فجلا بعض مظاهر النقص في أخلاق الناس وفي العلاقات فيما بينهم ، وشحنها بروح السخرية المريرة ، وأودعها فلسفته المتشككة في نوايا الناس والمتمثلة في سوء الظن بهم ، وأسلمته هذه النظرات المتشائمة ـ في كثير من الأحيان ـ إلى مشارف الزهد ، والانطواء ، والبرم بالناس ، والترفع عن سفاسف الحياة . ولقد وجّه الغزال سهام ذمّه إلى الناس جميعاً ، وجرّدهم من الفضل ، والصلاح ، والخلق النبيل ، وغدا الفساد لديه قانوناً حتميًّا يدرك الجميع ، وغدا الإنسان منتناً بطبيعته . يقول شاكّاً في قيمة الحياة الإنسانية وصلاحها بأسلوب ينطوي على السخرية المريرة :

إذا أُخبِرْتَ عن رجلٍ بريءٍ ... من الآفاتِ ظاهرُهُ صحيحُ

فسَلْهُمْ عنه هل هو آدميٌّ ... فإنْ قالوا نعمْ فالقولُ ريحُ

ولكنْ بعضُنا أهلُ استتارٍ ... وعندَ اللهِ أجمعُنا جريحُ

ومِنْ إنعامِ خالقِنا علينا ... بأنّ ذنوبَنا ليستْ تفوحُ

فلو فاحَتْ لأَصْبَحْنَا هروبًا ... فُرَادى بالفَلاَ ما نستريحُ

وضاقَ بكلِّ منتحلٍ صَلاَحًا ... لِنَتْنِ ذنوبِهِ البلدُ الفسيحُ[1]

---

(١) ديوانه : ص ٤٣ .

وعلى هذا النحو مضى الغزال في نظراته الناقدة للمجتمع وأخلاق النـاس ، فصبّ أحكامه القاسية على المرأة حيث جعلها مباحـة لكـل طـارق ، مسـلوبة الإرادة والمشاعر ، ذات وجود حسي فحسب[1].

ويصور ابن شهيد أحوال عصر الفتنة القرطبية الذي كان يضجّ بالاضـطراب وما نجم عنه من اختلال في القيم ، وانقلاب في المقاييس الاجتماعيـة أفضـت إلى انحطاط أعلام الفكر والعلم ، وإلى تـردّي الصـفوة إلى مهـاوي الخمـول ، وارتقاء الطغام الجهلة صهوة المجد والسيادة. والأدهى من ذلك أن يمتد الفساد، إلى طوائف من أهل العلم ـ فضلاً عن الجهال ـ مردوا على النفاق والتملق في رسائلهم ، وفقهاء بريئين من التقى اتخذوا علمهم مطية للكسـب حـازوا المنـى دونه . مما أنضج في نفس الشاعر أعمق مشاعر الألم ، فانكفأ على نفسه باكيـاً دهر الأراذل ذاك في هذه المقطوعة التي تنضح ألماً يقول :

كأنّ الدجى هَمّـي ودمعـي نجومُـهُ تحـدّرُ إشـفاقًا لـدهرِ الأراذلِ
أرى حُمُراً فـوقَ الصـواهلِ جمّـةً فأبكي بعـيني ذُلَّ تلـكَ الصـواهلِ
ورُبَّـةَ كتـابٍ إذا قيـلَ زوّرُوا بكَتْ مِنْ تَأَنّيهِمْ صـدورَ الرسـائلِ
وناقـلِ فقـهٍ لم يـرَ اللهَ قلبُـهُ يظنُّ بـأنَّ الـدينَ حفـظُ المسـائلِ
حُبوا بالمنى دوني وغـودرْتُ دونَهـمْ أرودُ الأماني في ريـاضِ الأباطـلِ[2]

وتفيض أشعار الأندلسيين بالشكوى من تردي الأخـلاق الاجتماعيـة ، ومـن التبرُّم بنفاق الناس وتقديمهم المنفعة المادية على القيم الخلقية . يقـول أميـة ابن أبي الصلت الأندلسي في خل السوء :

يـزورُني مُثْرِيـاً ويطـرقُني ولا أراهُ في الضـيقِ والعُسْـرهْ[3]

---

(١) انظر : ديوانه ص ٦٥، ٦٦ . (٢) ديوانه ص ١٤٣، ١٤٤ .
(٣) ديوانه . تحقيق : عبد الله محمد الهوني ص ٥٣ .

ودفع هذا الخلل الأخلاقي الشعراء إلى التماس الحذر من الناس ، وإيثار العزلة عنهم ، والفزع من لقائهم على النحو الذي عبر عنه السميسر في قوله :

وظَنَّ بسائرِ الأجناسِ خيراً وأمَّا جنسُ آدمَ فالبِعادَا [1]

وشغل السميسر بانتقاد سياسة حكام عصر الطوائف ، وأسرف في هجائهم ، وكشف خيانتهم وفسادهم وتواطؤهم مع الأعداء ، وخرج في هجائه في بعض الأحيان إلى السباب والشتائم الموجعة[2] ، وانتقد مابتلي به الشاعر الأندلسي في عصره من نقائص خلقية كالعُجْب ، ورقة الدين ، والحمق[3] .

١٠- الفكاهة والهزل :

اتسم شطر من الشعر الأندلسي المحدث بطابع الفكاهة ، وشاعت فيه روح السخرية والدعابة ، والميل إلى الهزل . ويلوح أن هذا الجانب النفسي كان بارزاً في الشخصية الأندلسية على النحو الذي قرره المقري بقوله : ((ولأهل الأندلس دُعابة وحلاوة في محاوراتهم ، وأجوبة بديهية مسكتة ، والظّرفُ فيهم والأدب كالغريزة»[4] . وتجلت هذه السمة الفكاهية لدى شعراء نزعت شخصياتهم نحو خفة الروح ، ومالوا إليها بغية الترويح عن الممدوح قصداً لنيل عطائه ، وإدخال السرور إلى مجلس الأنس . وقد يكون هذا المنحى إفصاحاً عن

---

(١) الكيلاني . دكتور حلمي . السميسر حياته وشعره . مؤتة للبحوث والدراسات . المجلد السابع ـ العدد الأول . جامعة مؤتة ، الأردن ١٩٩٢م . جمع مابقي من شعره مابين صفحتي ١٢٩-١٥٤ . ص١٤١ .

(٢) يقول السميسر في هؤلاء الحكام مصوراً النقمة العامة عليهم عامداً إلى توعدهم بالثأر :

نادِ الملوكَ وقل لهم ماذا الذي أحدثتُمُ
أسلمتم الإسلامَ في أسر العدا وقعدتم
وجب القيامُ عليكم إذْ بالنصارى قمتم

السميسر حياته وشعره ص ١٤٨ .

(٣) انظر : السميسر حياته وشعره ص ١٤٠ . (٤) نفح الطيب ٣٨١/٣ .

المرارة والألم اللذين فرضتهما ظروف الشاعر القاسية ، أو مظهراً للزهد والبرم بالحياة والناس .

ويعد الشاعر يحيى الغزال من أظهر شعراء الفكاهة والتندُّر ، إذ تطلّ هذه الروح الساخرة في أغلب موضوعات شعره[1] ، وهي تفصح عن مزاج منطلق ، ولا سيما إذا مارأيناها تلازمه في أشد المواقف حرجاً . يقول حين شارف هو وصاحبه على الغرق في رحلة بحرية :

قالَ لي يحيى وصِرْنا بينَ موجٍ كالجبالِ
فرأيْنَا الموتَ رأيَ العينِ حالاً بعدَ حالِ
لم يكنْ للقومِ فينا يارفيقي رأسُ مالِ[2]

وعرف الشاعر مؤمن بن سعيد بميله إلى الدعابة والعبث ، وقد أكثر من التندر بالقضاة ، والتهكم باللحى . يقول متشوقاً إلى عهد المصيف :

لَهْفِي على أنفِ المصيف وطيبه وحصائدٍ منسوجةٍ بالسنبلِ
أيامَ أقبلُ والسَّفا في لحيتي فتخالُها ذنبَ الحصانِ الأشعلِ[3]

ويتسع هذا المنزع الفكاهي بمرور الزمن ، ويقترب من نماذجه المشرقية في وصف هموم الفئات الشعبية ومتاعبها في تحصيل الرزق ، وشكوى الفقر والحرمان بأسلوب ساخر . فها هو ذا ابن صارة يصف فروته البالية :

أودَتْ بذاتِ يدي فُريّة أرنَبٍ كفؤاد عروةَ في الضّنى والرقةِ
إنْ قلتُ باسم اللهِ عندَ لباسِها قرأتْ عليَّ إذا السماءُ انشقَّتِ[4]

---

(١) انظر : على سبيل المثال قوله في القاضي يخامر . ديوانه : ص ٥١ ، وانظر : قصة بيعه للأعشار ص ٤١ ، وانظر : وصفه للمرأة الصلعاء وصفاً ساخراً ص ٤٢ .

(٢) ديوانه ص ٧١ .

(٣) ابن الكتاني . التشبيهات : ص ٢٧٨. والأشعل : فيه شعلة وهو بياض في ذنب الفرس .

(٤) عوض الكريم . دكتور مصطفى . ابن صارة الأندلسي حياته وشعره . بلا تاريخ ، ص٦٢.

واتخذ الشاعر ابن مسعود هذا المنحى الهزلي وسيلة لوصف رقة حاله وسوء معيشته ، ومن ثَمَّ استدرار عطف السامعين . يقول في إحدى أراجيزه الهزلية مخاطباً وزيراً على لسان جارية كان أهداه إياها :

ولو ترى ياذا الندى مثواهُ لقلتَ سبحانَ الذي أبلاهُ
قطعةُ لبدٍ دارس الآثارِ قد طُرحَتْ حولَ مكانِ النارِ
وطوبةٌ بموضعِ الرقادِ كأنَّنا منْ أعبدِ العبّادِ
هذا جميعُ كلِّ مافي البيتِ بلا دقيقٍ يرتجى وزيتِ [1]

ويبدو ابن مسعود هذا صورة أخرى لابن المخفّف ، وابن الشمقمق وغيرهما من الشعراء العباسيين الذين صوروا تصويراً شعبيًّا حياة الضنك والحرمان التي قُدّر لهم أن يحيوها في إطار من الهزل والتندر الساخر[2] ، وقد قرنه ابن بسام بمحمد بن حجاج العراقي في ظرفه وهزله[3] . فيظهر في إحدى قصائده طبيباً يصيح في دكانه في عكاظ مزهواً بحذقه في العلم وأسرار الطب وعقاقيره ، وتفوقه على السحرة في تأثيره . وهذا يذكرنا بأبطال المقامات الذين كانوا يسلكون سبيل الكدية سعياً إلى الرزق والمال[4] ، يقول ابن مسعود في قرمه وتشهّيه أطايب الطعام :

وإذا قيلَ لي بمَنْ أنتَ صبٌّ وعلام انسكابُ دمعِ المآقي
قلتُ بالسكباجِ والجمليا تِ ورَخْصِ الشِّوا معاً بالرُّقاقِ

---

(١) الذخيرة ١/١ : ٥٥٣، ٥٥٤ .

(٢) انظر : عن هؤلاء الشعراء ضيف . دكتور شوقي . العصر العباسي الأول ـ ط ٦ ـ دار المعارف بمصر ص ٤٣٥ ، ٤٣٩، ٤٤٠ .

(٣) انظر : الذخيرة ١/١ : ٥٤٩ .

(٤) انظر : قصيدة ابن مسعود في الذخيرة ١/١ : ٥٥٥، ٥٥٦ ، وقد أشار دكتور إحسان عباس إلى الشبه بين منحى ابن مسعود هذا وما ورد في إحدى مقامات السرقسطي . انظر : عصر الطوائف والمرابطين . حاشية رقم (٢) ص ١٥١ .

وجشيشُ السميذِ أعذبُ عندي من رُضابِ الحبيبِ عندَ العناقِ[1]

وسلك ابن قزمان هذا المنزع الفكاهي الطريف في زجله حين عبر عن معاناته الفقر والجوع ، إذ انقطعت أصوات أدوات الطعام في بيته ، فلم يعد يحتاج للغربال ، وغدا وعاء الأدم الخالي من الطعام مسكناً للفئران . يقول :

ياثلاث أيام لي ذابْ لم يطقطقْ فيها غربالْ
أول أمس وأمس واليوم وأنا منه مشغولْ البالْ
وأراد الفار دُوير وخذ القصري انزالْ
الخمير بالله نكلُ لسٌ أجود مما تُحْتَجْ[2]

وتتوالى هذه الأشعار المحدثة التي تنضح بروح الفكاهة على امتداد الشعر الأندلسي ، فتطل في موضوعات شتى كوصف ابن خفاجة كبشاً أملح يطوف حول نعجة سوداء[3] ، ووصف أبي جعفر بن سعيد الحمّام الذي يعمر بالأنذال الرعاع ويفتقر إلى أسباب النظافة[4] ، وهجاء علي بن حزمون وجهه وجسده على طريقة الحطيئة[5] ، وتملح لسان الدين بن الخطيب وتندّره بالعاذل الخفيف الدماغ والكف ، الثقيل القول والروح[6] ، ورثاء عبد الكريم القيسي لخروف جعله ضحية بعيد[7].

١١- وصف المنشآت الحضارية :

جنح شعراء الأندلس المحدثون إلى وصف المنشآت الحضارية كالقصور ، والمنى ، والمباني ، والبساتين كمدينة الزهراء ، والزاهرة ، وبساتينهما ،

---

(١) الذخيرة ١/١ : ٥٥٧ .
(٢) الأهواني . دكتور عبد العزيز . الزجل في الأندلس ص ٨٤، ٨٥ .
(٣) انظر : ديوانه ص ١٥٢- ١٥٣ .
(٤) انظر : نفح الطيب ١٨٢/٤ .
(٥) انظر : المغرب ٢١٤/٢، ٢١٥ .
(٦) انظر : ديوانه ٢٤٧/١ .
(٧) انظر : ديوانه ص ١٦٩ .

ومنشآتهما ، ودورهما[١] ، وقصور الحكام وما تضمّه من أعمدة ، ومقاصير ، ومجالس ، واعتمد هذا الشعر الإكثار من الصور وحشد التشبيهات ، كوصف ابن هذيل منية الزهراء[٢] ، ووصف ابن شخيص لمباني الزاهرة وبساتينها[٣] . يقول الحسن بن حسان في الزهراء وقصورها معلياً من شأن تلك المغاني ذات السنا والسناء :

مقاصيرُ تحتجُّ السماءُ وتدّعي ... على الأرضِ فيها باحتجاجٍ مؤكّدِ
ومن عمدٍ تُزهى بماءِ محاسنٍ ... يصوِّبُ عنه كلُّ طرفٍ مُصعَّد
حكَتْ حمرُها الياقوتَ والدرَّ بيضُها ... ومن خضرِها اشتُقَّ اخضرارُ الزبرجدِ
أيبأى سليمانٌ بصرحٍ ممرّدٍ ... وقصرُكَ فيه كلُّ صرحٍ ممرَّدِ
عشيقٌ ومعشوقٌ وبهوٌ وزاهرٌ ... إلى كاملٍ في حسنِه ومحدَّدِ[٤]

ويصف ابن عبد ربه إحدى ضياع الأمير محمد المسماة بـ (مُنية كِنْتُش) مثنياً على حسنها ، وإحكام صنعتها ، وإشراق رياضها في قصيدته التي مطلعها :

ألِمَّا على قصرِ الخليفةِ فانظرا ... إلى منيةٍ زهراءَ شيدَتْ لأزهرا[٥]

ووصف أبو الحسن البكري بعض المصانع السلطانية المعتمدية[٦] . أما ابن زمرك فعني بوصف ما شاده السلطان الغني بالله من مبانٍ تضمّ قصوراً ، وأبهاء ،

---

(١) عقد ابن الكتاني فصلاً في كتاب التشبيهات هو (باب في القصور والبساتين والصهاريج والأشجار) انظر : ص ٦٦، ٧٩ .

(٢) انظر : ابن الكتاني . التشبيهات ص ٧٦-٧٧ . وانظر : وصف المباني العامرة والقصور وما فيها من برك وتماثيل حيوانات في النفح ١/٤٩١-٤٩٧ .

(٣) انظر : شعر ابن شخيص الأندلسي ، ص ٧٩-٨١ .

(٤) ابن الكتاني ، التشبيهات ص ٧٧، ٧٨ .

(٥) انظر : القصيدة في ديوانه ص ٨٣، ٨٤ .

(٦) انظر : الذخيرة ٢/٢ : ٥٧٠، ٥٧١ .

وبساتين ، وجنان[1] تنطوي على معالم البهجة والروعة ، وتضجّ بزخارف الحياة وترفها اللذين غرقت فيهما غرناطة قبيل أفول شمسها الحزين . يقول في وصف البهو البهي الذي بناه الغني بالله بحوضه المرمري ، ونافورته ذات الأسود التي تمجُّ المياه من أفواهها وصفاً بديعاً :

به البهوُ قدْ حازَ البهاءَ وقدْ غدَا ... به القصرُ آفاقَ السماءِ مُباهيَا

به المرمرُ المجلوُّ قد شفَّ نورُهُ ... فيجلو من الظلماءِ ماكانَ داجيَا

وراقصةً في البحرِ طوعَ عنانِها ... تراجعُ ألحانَ القيانِ الأغانيَا

إذا ماعلتْ في الجوِّ ثم تحدَّرَتْ ... تُحلي بمرفضِّ الجمانِ النواصيَا

بذوْب لجينٍ سالَ بينَ جواهرٍ ... غدا مثلاً في الحسنِ أبيضَ صافيَا

تشابه جارٍ للعيونِ بجامدٍ ... فلم أدرِ أيًّا منهما كانَ جاريَا[2]

ويتصل بهذا الموضوع ماتجه إليه بعض الشعراء المتأخرين من نظم مقطوعات شعرية تكتب على المباني السلطانية ، أو في جنبات القصور الخلافية ، أو على الأدوات والأثاث الملكي . ويلوح أن هذا الشعر كان يُنظم بإيماء من الحاكم الأندلسي ، أو إرضاء له . ففي ديوان لسان الدين بن الخطيب مقطوعات كثيرة . منها مانظمه ليكتب على سرير من الخشب اتُّخذ للسلطان[3]، والشعر الذي نظم ليُرقم على حمالة سيف لولد السلطان[4] ، وما كتب على مروحة[5] ، وقوله في مرآة اتخذت للسلطان[6] ، وقوله في إناء كان يشرب فيه السلطان[7] ، وما قاله ليكتب على سُفرة طعام[8] . يقول مما يكتب على طيقان الماء بالقبة السلطانية اليوسفية :

---

(١) انظر : نماذج من ذلك في شعر وموشحات ابن زمرك ١١٧-١٢٣ ، ١٢٤-١٣٢ ، ١٥٢-١٥٣ .

(٢) نفح الطيب ١٩١/٧، ١٩٢ .

(٣) انظر : ديوانه ٣٤٢/١، ٣٤٣ .

(٤) انظر : ديوانه ٣٨٤/١ .

(٥) انظر : ديوانه ٣٨٤/١، ٣٨٥ .

(٦) انظر : ديوانه ٣٣٤/١، ٣٣٥ .

(٧) انظر : ديوانه ٥٦٣/٢ .

(٨) انظر : ديوانه ٣٣٤/١، ٣٣٥ .

رقَمَــتْ أنامــلُ صــانعي ديبــاجي من بعدِ مانظمَــتْ جــواهرَ تــاجي
مَنْ جاءني يشكو الظمــاءَ فمــوردي صِرفُ الزلالِ العــذبِ دونَ مــزاجِ
فكــأنَّني قــوسُ الســماءِ إذا بــدَتْ والشمسُ مولانا «أبــو الحجــاجِ»[1]

وللسان الدين بن الخطيب شعر في وصف ساعة المنجانة . وهي ساعة ميكانيكية اختُرعت لتخبر بالوقت ، وغدت من لوازم الاحتفال بليلة المولد النبوي لدى ملوك بني مرين ، إذ كانت تزين قاعة الاحتفال[2] ، وقد اقتفى الأندلسيون آثار المغاربة في الاحتفال بهذا الصنيع في ليلة المولد النبوي ، وكان لسان الدين يصف هذه الساعة ساعةً فساعة مضفياً معاني صوفية ودينية على وصفه[3] واصلاً وصفها بالثناء على الممدوح السلطان :

مولاي ثانيةٌ مــن ليلِــكَ انصــرمتْ وجمرةُ الشوقِ من بعدِ الوقوفِ رمَــتْ
شأنُ الزمانِ افتــراقٌ بعــدَ مجتمــعٍ وأحرفٌ مُحيتْ من بعــدِ مارُسمــتْ
يامَنْ بهِ اتّصــلَ المستمســكونَ بِــهِ رحماكَ في أنفسٍ عن جمعِهَا قُسِــمَتْ[4]

---

(١) ديوان لسان الدين بن الخطيب ١٩٧/١ ، وطيقان الماء : جمع طاق : ماعطف من الأبنية ، أي جعل كالقوس من قنطرة ونافذة وما أشبه . فارسي معرب .

(٢) انظر : بعض مظاهر الاحتفال بليلة المولد النبوي ، ووصف ساعة المنجانة ، وبعض ماقيل فيها من شعر في نفح الطيب ٥١٣/٦-٥١٧ وفيه أنّ خزانة المنجانة كانت تقام على مقربة من السلطان ، ولها أبواب مرتجة على عدد ساعات الليل الزمانية ، وكلّما مضت ساعة وقع النقر بقدر حسابها ، وفُتح عند ذلك باب من أبوابها تبرز منه جارية حسنة المظهر في يدها اليمنى رقعة مشتملة على شعر فيه تلك الساعة باسمها مسطورة ، فتضعها بين يدي السلطان بلطف ويُسراها على فمها كأنها تؤدي البيعة بالخلافة حتى انبلاج الصبح .

(٣) انظر : نماذج من وصفه لساعة المنجانة في ديوانه ٢٠٣/١، ٢٠٤ ، ٢٠٨ ، ٥٢٤/٢ ، ٥٥٩ ، ٥٦٠ ، ٦٨٢ .

(٤) ديوانه ٥٥٩/٢، ٥٦٠ .

١٢- الشعر التعليمي :

وهو فن استحدثه العباسيون في المشرق ، فنظموا في العلوم المختلفة كالتاريخ ، والفقه ، والفلك ، وغيرها[١] . وقد توفر محدثو الأندلسيين على هذا الفن ، فنظموا في علوم كثيرة كالتاريخ ، والنحو ، والبلاغة وذلك لغرض تعليمي يتمثل في تيسير حفظها وتذكرها حين الضرورة .

وقد دفعت أحداث الأندلس السياسية والحربية من فتن وحروب داخلية وخارجية شعراءها إلى تخليد هذه الوقائع ، فهبّ الشعراء يدوّنون تلك الأحداث منذ فجر التاريخ وحتى عصورهم ، واقتصر بعضهم على الوقائع المعاصرة له . وكان الشاعر الغزال من أوائل الأندلسيين الذين توفروا على هذا الفن ، فنظم أرجوزة في فتح الأندلس تمتاز بالطول ذكر فيها سبب فتحها ، وأسهب في وصف المعارك بين الفاتحين من المسلمين وأهلها ، وتحدث عن عدد أمرائها وأسمائهم مستقصياً محسناً[٢] ، وثمة أرجوزة لتمام بن عامر في ذكر افتتاح الأندلس وتسمية ولاتها والخلفاء فيها ، ووصف حروبها منذ دخول طارق بن زياد إلى آخر أيام الأمير عبد الرحمن بن الحكم[٣] ، ووصلتنا أرجوزة ابن عبد ربه التي دوّن فيها انتصارات عبد الرحمن الناصر من سنة ٣٠٠هـ إلى سنة ٣٢٢هـ . واتسمت هذه الأرجوزة في بعض أطرافها بالتوقد العاطفي والتفاعل مع الحدث التاريخي على نحو تجاوز فيه الشاعر برود النظم وجموده . من ذلك قوله في أول غزوة غزاها الناصر :

ثمّ انتحى جيّان في غزاتِهِ ... بعسكرٍ يشعر من حماتِهِ

لمّا رماهَا بسيوفِ العزمِ ... مشحوذةً على دروعِ الحزمِ

---

(١) انظر : ضيف . دكتور شوقي . تاريخ الأدب العربي . العصر العباسي الأول . دار المعارف بمصر ـ ط ٦ ، ص١٩٠ .

(٢) انظر : نفح الطيب ٢٨٢/١ .

(٣) انظر : ابن الأبار . الحلة السيراء ١٤٤/١ .

كـــادَتْ لهـــا أنفسُـــهُمْ تجـــودُ وكـــادتِ الأرضُ بـــــهِمْ تميـــدُ

لـــولا الإلـــهُ زُلْزِلَـــتْ زلزالَهـــا وأخرجَـــتْ مِـــنْ رهبـــةٍ أثقالَهَـــا [1]

وغدا هذا الضرب من الشعر وسيلة إلى التكسب والنوال . فهذا أبو طالب عبد الجبار الملقب بالمتنبي ينظم أرجوزته التاريخية الشهيرة ليقدّمها إلى أحد الحكام طلباً للعطاء . وتنمُّ أرجوزته على معين ثقافي بعيد الغور شمل التاريخ ، والفلسفة ، وعلم الكلام ، وتمتاز بالجزالة وحسن السبك[2] . وشهرت مقصورة حازم القرطاجني التاريخية التي بلغت ألف بيت وستة والتي مدح بها المستنصر الموحدي . واللافت للنظر في هذه الأرجوزة أن الشاعر كان يرمي من وصف الأحداث الأندلسية الأليمة في عصر الموحدين إلى استثارة حمية الممدوح واستصراخه لإنقاذ الأندلس من أعدائها الإسبان بعد استردادهم للعديد من حواضرها الكبرى . يقول في ذلك راجيًا رأب الصدع وجبر الكسر :

ولـــو سَـــمَا خليفـــةُ اللهِ لـــــها لافتكَّها بالســـيفِ منـــهُمْ وافتـــدى

فقـــد أشـــادَتْ ألســـنُ الحـــالِ بِـــهِ حيَّ على اســـتفتاحِهَا حـــيَّ علـــى[3]

وأسهم لسان الدين بن الخطيب في هذا الفن ، فنظم أرجوزة في تاريخ الدول الإسلامية منذ الخلفاء الراشدين حتى نهاية دولة الإسلام في الأندلس دعيت باسم ((نظم الحلل في نظم الدول)) وتتضمن شرحاً نثريًّا بقلم لسان الدين ابن الخطيب نفسه[4] .

وأولى علماء الأندلس علوم النحو والصرف واللغة عناية خاصة ، فنظموا فيها منظومات وفيرة ، وشهر ابن مالك الجياني (- ٦٧٢هـ) بمنظوماته

---

(١) ديوانه ٢٠٣، ٢٠٤ .

(٢) انظر : أرجوزته في الذخيرة ٢/١ : ٩٢٠-٩٤٤ .

(٣) القرطاجني ، أبو الحسن حازم . قصائد ومقطعات . تقديم وتحقيق دكتور محمد الحبيب ابن الخوجة ، الدار التونسية للنشر ١٩٧٢م ، ص ٦٨ ، وانظر : المقصورة ص١٧-٧١ .

(٤) انظر : مقدمة الإحاطة ٥٥/١ .

اللغوية[1] ، ولا سيما ألفيته في النحو والصرف التي فاقت شهرتها كل حدّ منذ تأليفها إلى اليوم ، وغدت مرجعاً أساسيًّا للطلاب على امتداد العالم العربي والإسلامي ، وجمع فيها مسائل علم النحو والصرف ودقائقهما ، ونظم حازم القرطاجني في علم النحو أيضاً ، أما أبو حيان الغرناطي الأندلسي (- ٧٤٥هـ) فله أرجوزة في النحو سماها « نهاية الإغراب في علمي التصريف والإعراب »[2] .

واقتفى بعض شعراء الأندلس العلماء سبيل المشارقة في نظم أراجيز تتضمن كثيراً من الألفاظ الشائعة والمهجورة لإفادة المتأدبين منها وحفظها كما صنع ابن دريد في مقصورته الشهيرة ، وممّن عارضها من الأندلسيين علي بن حريق المخزومي[3] . فضلاً عن أرجوزته اللغوية التي عارض بها أرجوزة ابن سيده اللغوية .

أما في العلوم الدينية فنظم الأندلسيون في القراءات ، ومسائل الفقه والحديث شعراً تعليميًّا غزيراً . من ذلك منظومة الشاطبي القاسم بن فيرُّه (-٥٩٠هـ) « حرز الأماني ووجه التهاني » في القراءات[4] التي حظيت بشهرة واسعة وشروح كثيرة . وكذلك نظم أبو حيان الغرناطي منظومته المسماة « عقد اللآلي »[5] . ولأبي بكر بن عاصم (-٨٢٩هـ) أرجوزتان في علم الأصول ،

---

(١) انظر : هذه المنظومات في ضيف . دكتور شوقي . عصر الدول والإمارات (الأندلس) ص ٢٤٣ .

(٢) انظر : ابن حجر العسقلاني ١٣٥٠هـ الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ـ الهند ـ ط ١، ٣٠٥/٤، وانظر : نفح الطيب ٥٥٣/٢.

(٣) انظر : المراكشي . أبو عبد الله محمد بن عبد الملك الأنصاري ـ السفر الخامس من كتاب الذيل والتكملة . القسم الأول . تحقيق : دكتور إحسان عباس نشر وتوزيع دار الثقافة ـ بيروت ـ لبنان ١٩٦٥م ، ص ٢٧٦ .

(٤) انظر : وفيات الأعيان ٢٣٤/٣ .

(٥) انظر : ابن حجر العسقلاني ، الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة ، ٣٠٤/٤ ، ونفح الطيب ٥٥٢/٢ .

وأرجوزة في الفقه المالكي ، وقصيدتان في القراءات ، وقصيدة في علم الفرائض[1] .

وكان لفنون البديع نصيب من النظم التعليمي ، فنظم نفر من الأندلسيين القصائد البديعيات التي ابتدعها المشارقة . وهي قصائد يتضمن كل بيت منها فنًّا من فنون البديع والبيان . ومن أبرز من أسهم في هذا الميدان ابن جابر الوادي آشي (- ٧٨٠ هـ) الذي نظم بديعية في مئة وسبعة وعشرين بيتاً ، وجعل موضوعها مديح الرسول عليه الصلاة والسلام ، وضمّنها نحو ستين فنًّا بديعيًّا سماها «الحلة السيرا في مدح خير الورى»[2] .

ونظموا في مسائل علم الطب كما صنع لسان الدين بن الخطيب في أرجوزته المسماة «المعلومة» في الطب ، وأرجوزته المسماة «المعتمدة في الأغذية المفردة» ، ونظم في السياسة المدنية أرجوزة[3] ، ونظم أبو الحسن الأنصاري الجياني (- ٥٩٣هـ) في الكيمياء كتابه «شذور الذهب» في الكيمياء ، وقيل فيه «إن لم يعلمك صناعة الذهب علمك الأدب»[4] .

واحتلت النصائح والوعظ والدعوة إلى الأخلاق الفاضلة مساحة في هذا الشعر التعليمي ، وتبرز في هذا المنحى قصيدة أبي مروان الجزيري التي أودَعها باقة مونقة من النصائح المستقاة من أصول الدين وآدابه مستلهمة السنة النبوية المطهرة وسيرة السلف الصالح ، فدعا فيها إلى تقوى الله ، والتمسك بالجماعة ، وقضاء حق الوالدين ، والتحلي بالخلق الإسلامي الكريم . يقول الجزيري :

---

(١) انظر : أسماء منظومات ابن عاصم في نفح الطيب ٢١/٥ .

(٢) انظر : نفح الطيب ٦٧٦/٢ .

(٣) انظر : أراجيز لسان الدين بن الخطيب في نفح الطيب ٩٨/٧، ٩٩ ، ومقدمة كتاب الإحاطة ٦٧/١، ٦٨ .

(٤) انظر : المقري . نفح الطيب ٦٠٥/٣، ٦٠٦ .

فعليـــك تقـــوى الله فالزَمْهَـــا تَفُـــزْ وحـــدوده حـــافظ عليهـــا تُـــؤجَرِ
لاتخـــرجَنَّ عـــن الجماعـــةِ إنّهـــا تـــأتَمُّ بـــالحق الجلـــيِّ الأنـــور
ثـــم اقضِ حقّ الوالدين وقُمْ بـــما فرضَ الكتابُ عليـــكَ منـــه وابـــدرِ
واغضضْ كلامَكَ وامشِ هوناً والقَ مَنْ لاقيـــتَ طلقـــاً لابَجَـــدٍّ أصْـــعَرِ
دينُ الفـــتى أولى بـــه مـــن عرضِـــهِ والعرضُ أولى مِن يســـارِ الموســـرِ[1]

وللسان الدين بن الخطيب شعر في النصائح والدعوة إلى محاسن الأخلاق ووعظ السلطان[2] .

١٣- الاستغاثة ورثاء الأندلس :

تفرد الشعر الأندلسي المحدث بشيوع فن بكاء الوطن المنهار والاستغاثة لإنقاذه ، وكان هذا الفن الشعري صورة للظروف الأندلسية التاريخية الخاصة ، وصدى قويًّا ومباشراً لنكباتها العنيفة ونهايتها الفاجعة .

شغلت الحروب والصراعات تاريخ الأندلس كله من فتن داخلية ، وصراع بين الفئات الأندلسية المختلفة أودى بالخلافة الأموية ، وصدّع البنيان الأندلسي الراسخ[3] ، فغزوات النورمانديين البحرية وما خلّفته من كوارث[4] ، فدخول

---

(١) الجزيري . أبو مروان ، قصيدته في الآداب والسنة . تحقيق الأستاذ هلال ناجي ـ دار الغرب الإسلامي ـ بيروت ـ لبنان ـ ط ١ ، ١٩٩٤م ، ص ٥٣-٦٥ .

(٢) انظر : ديوانه ٢/٥٠٤ .

(٣) انظر : عن سقوط الخلافة الأموية والفتنة الكبرى في (دولة الإسلام في الأندلس) دكتور عنان . الكتاب الرابع (سقوط الخلافة الأندلسية ودولة بني حمود)ص١٤٦-١٧٩.

(٤) انظر : عن أخبار النورمانديين وغزواتهم في البيان المغرب ٢/١٣٠-١٣٢ ، وابن الخطيب . لسان الدين ، أعمال الأعلام . تحقيق وتعليق ليفي بروفنسال ـ ط ٢ ـ دار المكشوف ـ بيروت ـ لبنان ، ١٩٥٦م ، ص٢٠ . وانظر : ابن القوطية القرطبي ، تاريخ افتتاح الأندلس . حققه وشرحه وعلق عليه عبد الله أنيس الطباع . دار النشر للجامعيين ، بيروت ، ١٩٥٧م ، ص ٨٤-٨٦ .

المرابطين الأندلس ، وقضائهم على إمارات الطوائف[١] ، فضلاً عن الحروب الطويلة التي خاضها الأندلسيون مع أعدائهم الإسبان النصارى التي وسمت تاريخ الأندلس كله وعرفت باسم حروب الاسترداد[٢] وتمّ فيها انتزاع المدن الأندلسية الواحدة تلو الأخرى لتنتهي باستخلاص الأندلس جملة ، وإجلاء المسلمين عنها . ولا غرو أن يواكب الشعر هذه النكبات ، وأن يبكي الوطن المستلب ، ويتفجع على مأساته ، ويستغيث لإنقاذه . وعلى هذا تفرد هذا الشعر بقسمات فريدة لالتحامه بالواقع الأندلسي ، وتوثيقه الأحداث الأندلسية التاريخية ، ولإفصاحه عن وجدان الأندلسي في أعمق جوانبه وأصدقها . وهو جانب الألم لدى الفاجعة .

أفضت الفتنة البربرية التي شهدتها قرطبة إلى الإطاحة بالخلافة الأموية الزاهرة ، وعانت فيها قرطبة من صنوف البلاء ، والتدمير ، والمجاعة ، والبؤس ، فهبّ الشعراء الذين شهدوا دمار عاصمتهم الزاهرة تلك يبكون ماضيها البهيج متحسرين لوحشتها وعفائها ، ونكبة وجوه العلم والأدب فيها . من هؤلاء الشعراء ابن شهيد ، وابن حزم[٣] ، والسميسر[٤] . يقول فيها ابن شهيد :

---

(١) انظر : عن دخول المرابطين الأندلس وقضائهم على ملوك الطوائف في عنان محمد عبد الله ، دول الطوائف ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر- القاهرة ، ط ١ ، ١٩٦٠م ، ص٣٢٥، وأشباخ يوسف . تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين . ترجمه وعلق عليه محمد عبد الله عنان . الجزء الأول ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٤٠م ، ص٩٤-٩٧ .

(٢) انظر : عن حروب الاسترداد والنزاع بين الأندلسيين والنصارى الإسبان في مؤنس . دكتور حسين ، (فجر الأندلس) ـ الشركة العربية للطباعة والنشر ـ القاهرة ـ ط ١ ، ١٩٥٩م ، ص ٣٠٨ .

(٣) انظر : قصيدة ابن حزم في ابن حزم . طوق الحمامة في الألفة والألاف . ضبط نصه وحرر هوامشه دكتور الطاهر مكي . دار المعارف . مصر ـ ط ٢، ١٩٧٧م ، ص١١٦، وانظر : أعمال الأعلام ١٠٧، ١٠٨ .

(٤) انظر : رثاء السميسر لضاحية الزهراء في النفح ٥٢٧/١، ٥٢٨ .

فلمثلِ قرطبةٍ يقلُّ بكاءُ مَنْ يبكي بعينٍ دمعُها متفجِّرُ
عهدي بها والشملُ فيها جامعٌ من أهلِهَا والعيشُ فيها أخضرُ
ياجنةً عصفتْ بها وبأهلِهَا ريحُ النوى فتدمّرَتْ وتدمَّرُوا
كبدي على علمائِهَا حلمائِهَا أدبائِها ظرفائِها تتفطَّرُ [1]

وأثارت نكبة بربشتر التي استولى عليها النورمانديون سنة (٤٥٦هـ) مشاعر الأسى والحسرة لما أصابها من مآسٍ ، فهبّ الشاعر الزاهد ابن العسال يصف ماارتكبه العدو في تلك المدينة من منكرات ملقياً اللوم على الأندلسيين الذين ارتكبوا الذنوب ، وركبوا الكبائر مجاهرين بها[2] .

وفجّر استيلاء المرابطين على الأندلس وقضائهم على أمراء الطوائف أعمق مشاعر الألم لدى الشعراء الذين انطلقوا يبكون تلك الإمارات ، ويتفجعون لملوكها رعاة الأدب والشعر ، فحظيت إمارة بني عباد في إشبيلية بنصيب هائل من رثاء الشعراء للمملكة العظيمة ، وندب ملكها الشاعر الفارس النبيل راعي الأدب والشعر ، كما بكى هو نفسه ملكَه الزائل ومصيره التعس أسيراً ، ذليلاً ، منفيًّا ، مقارناً بين ماضي العزّ والسلطان ، وحاضر الهوان ، والذل ، والغربة[3] . ولعل الشاعر أبا بكر الداني المعروف بابن اللبانة من أشد شعراء المعتمد ولاءً ووفاءً . وقد أخلص شطراً مهمًّا من شعره في بكاء مواليه بني عباد ـ والتفجع على مكارمهم ومناقبهم المفقودة . من ذلك قوله :

تبكي السماءُ بدمعٍ رائحٍ غادٍ على البهاليلِ من أبناءِ عبّادِ

---

(١) ديوانه ١٠٩-١١١ .

(٢) انظر : قصيدة ابن العسال في الحميري ، الروض المعطار في خبر الأقطار . تحقيق : دكتور إحسان عباس . مؤسسة ناصر للثقافة ، ط ٢، ١٩٨٠م، ص٩٠، ٩١ .

(٣) انظر : ابن عباد . المعتمد ، ديوانه جمعه وحققه أحمد أحمد بدوي ، وحامد عبد المجيد ، أشرف عليه وراجعه دكتور طه حسين ـ المطبعة الأميرية بالقاهرة ، ١٩٥١م ، ص٩٨-١٠١ .

على الجبالِ الـتي هُـدّتْ قواعـدُها وكانتِ الأرضُ منـهم ذاتَ أوتـادِ
وكعبـةٍ كانـتِ الآمـالُ تعمرُهـا فاليومَ لاعـاكفٌ فيهـا ولا بـادِ[1]

وكانت إمارة بني الأفطس في بطليوس من أكثر ممالك الطوائف ألقاً وازدهاراً وعناية بالعلم والأدب . تألق من ملوكها المظفر (-٤٦٠هـ) ، وعرف ابنه المتوكل (-٤٨٧ هـ) بسعة الثقافة والإسهام فيها ، ورعاية العلماء والأدباء ، وحين نكبهم المرابطون وقتلوا ملوكهم (٣٨٧هـ) بكاهم ابن عبدون في مرثيته الشهيرة التي يشكو فيها من غرور الدهر وفجائعه مستوحياً أحداث التاريخ مستمدًّا منها العبرة[2] .

واستدعى سقوط المدن الأندلسية بيد النصارى كطليطلة (٤٧٨هـ) ، وبلنسية (٤٨٧هـ) و(٦٣٦هـ) [3] ، وإشبيلية (٦٤٥هـ) أشعاراً تموج بمعاني ندب المدن المنكوبة ، واستثارة الهمم لإدراكها ، والحض على الجهاد والمقاومة ، وتقريع الأندلسيين لتخاذلهم ومماألأتهم العدو[4] .

وإزاء هذا الخطر النصراني هبَّ نفر من حكام الأندلس وشعرائه يستنجدون بالمسلمين خارج الأندلس ـ ولا سيما إفريقية ـ لنجدتها ، فبرز فن الاستغاثة

---

(١) المراكشي . المعجب ٢٠٩، ٢١٠ ، وانظر : رثاء الشاعر أبي بكر بن عبد الصمد لمليكه المعتمد في أعمال الأعلام ص ٦٥-٧٠ .

(٢) انظر : القصيدة في ابن عبدون ، ديوانه . تحقيق سليم التنير . دار الكتاب العربي ـ دمشق ـ سورية ـ ط ١ ، ١٩٨٨م ، ص ١٣٩-١٥٢ .

(٣) كان سقوط بلنسية الأول سنة ٤٨٧هـ ، أما السقوط الثاني فكان سنة ٦٣٦هـ .

(٤) انظر : هذه المعاني في رثاء طليطلة لابن العسال في نفح الطيب ٣٥٢/٤ ، وقصيدة أخرى لشاعر مجهول . النفح ٤٨٣/٤-٤٨٦ ، وفي رثاء بلنسية لابن خفاجة ديوانه ص ٣٥٤ ، ورثائها لابن العسال النفح ٤٦٤/٤ ، وفي رثاء إشبيلية لأبي موسى هارون ابن هارون في الباشا . دكتورة مهجة رثاء المدن والممالك في الشعر الأندلسي ـ رسالة دكتوراه ـ جامعة دمشق ـ كلية الآداب ١٩٨٧م ، ص ١١٧، ١١٨ نقلاً عن البيان المغرب . ورثاء إشبيلية لابن سهل في ديوانه ص ١٤٠ .

والدعوة إلى الجهاد والمقاومة لاستنقاذ الوطن من محنته ، وأفصحت هذه الأشعار عن اشتداد الصلة بين الأندلس والمغرب الإفريقي ، وعزّزت التلاحم بين العدوتين في أواخر عهود الأندلس وأشدها حرجاً . ومن أبرز قصائد الاستغاثة الأندلسية مانظمه ابن الأبار (-٦٥٨هـ) في محنة بلنسية وأنشده بين يدي سلطان إفريقية (تونس) أبي زكرياء الحفصي في سفارة أمير بلنسية أبي جميل زيان بن مردنيش إليه داعياً إياه إلى إدراك الأندلس بخيول الفتح . وهي قصيدته السينية الشهيرة التي مطلعها :

أدرِكْ بخيلَكَ خيلَ اللهِ أندلسَا إنّ السبيلَ إلى منجاتِها درسَا[1]

وهو في قصيدته الأخرى التي نظمها للغرض ذاته ، ووجهها إلى الأمير الإفريقي عينه لايكتفي بالاستنجاد بذاك الأمير ، بل يستغيث بالمسلمين جميعاً لنصرة الوطن الأندلسي المنهار ، ويدعوهم أن يخوضوا البحر إليه ليغدو بحيرة إسلامية مفصحاً عن التحام المشاعر الأندلسية بالمشاعر الإسلامية العامة جاعلاً إنقاذ الأندلس قضية إسلامية تمس المسلمين جميعاً . وتتبدى في هذه القصيدة المهمة مشاعر الاعتزاز بالوطن الأندلسي ثغراً دائماً للجهاد والجلاد يستوي فيه الأحياء بالشهداء شرفاً وعزًّا . يقول :

نادتكَ أندلسٌ فلبِّ نداءَها واجعلْ طواغيتَ الصليبِ فداءَهَا
هبُّوا لها يا معشرَ التوحيدِ قدْ آنَ الهبوبُ وأحْرِزُوا علياءَهَا
أوْلُوا الجزيرةَ نصرةً إنَّ العِدَا تبغي على أقطارِهَا استيلاءَهَا
دارَ الجهادِ فلا تفُتْكُم ساحةٌ ساوتْ بها أحياؤها شهداءَها[2]

---

(١) انظر : القصيدة في ابن الأبار ، ديوانه . قراءة وتعليق دكتور عبد السلام الهراس ـ الدار التونسية للنشر ١٩٨٥م ، ص ٣٩٥-٤٠٠ ونفح الطيب ٤/٤٥٧-٤٦٠ .

(٢) انظر : القصيدة في ديوانه ص ٣٣-٤٠ ، ونفح الطيب ٤/٤٧٩-٤٨٣ .

وينكر أبو البقاء الرندي (- ٦٨٤هـ) ـ صاحب القصيدة الذائعة في رثاء الأندلس جملة ـ تغافل المسلمين في إفريقية عن إنقاذ الأندلس ، وينعى عليهم لهوهم واغترارهم بالمنعة والسلطان متناسين إخوانهم في الدين ، مستثيراً هممهم لنصرة الأندلسيين وانتشالهم من مصيرهم البائس . يقول فيها :

يا راكبين عتاقَ الخيلِ ضامرةً ... كأنّها في مجالِ السبقِ عقبانُ

وراتعين وراءَ البحرِ في دعةٍ ... لهمْ بأوطانهمْ عزٌّ وسلطانُ

أعندَكم نبأٌ منْ أهلِ أندلسٍ ... فقد سرى بحديثِ القومِ ركبانُ

ماذا التقاطعُ في الإسلامِ بينكم ... وأنتمُ ياعبادَ اللهِ إخوانُ [1]

١٤- الفجريات :

وينضوي تحت فن الغزل الأندلسي موضوع جزئي شاع في الشعر الأندلسي المحدث وهو شعر الفجريات ؛ إذ يتحدث الشاعر عن لقائه بالمحبوبة ليلاً ، وقضائهما الليل يتساقيان الهوى واللذة إلى أن يبزغ فجر الفراق ليقطع الوصال ويبدّد المتعة . وإذا كانت نماذج هذا الفن موجودة في الشعر المشرقي[2] فإن ذيوعه في شعر الأندلسيين يجعله فنًّا ألصق بالتربة الأندلسية ، ويحيله سمة من سمات شعرهم المحدث . فنماذج هذا الموضوع كثيرة جدًّا[3]. نكتفي منها بقول ابن شرف مصوراً هذه الجواء الحالمة :

---

(١) انظر : القصيدة في نفح الطيب ٤/٤٨٧، ٤٨٨ ، والفاسي ابن أبي زرع الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية ـ مطبعة جول كربونل ـ الجزائر ١٩٢٠م ، ص ٢٧-٢٩ .

(٢) ورد هذا الفن في شعر عمر بن أبي ربيعة وغيره من شعراء المشرق . انظر : شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة محمد محيي الدين عبد الحميد . ط ١ مطبعة السعادة بمصر ١٩٥٢م ، ص ٨٩- ٩٠ ، ١٦٤- ١٦٥- ١٦٦ ، ١٦٧- ٢٢٦- ٢٢٧ ، ٢٤١ ، ٢٥٥ ، ٤٨٢ ، وانظر : ديوان الوليد بن يزيد ـ جمع وترتيب المستشرق الإيطالي ف . جبريالي : مطبعة ابن زيدون بدمشق ١٩٧٣م ، ص ٥٨ .

(٣) انظر : ديوان ابن الزقاق ص٣٠ ، ٢١٢ ، ٢١٤ ، والذخيرة ٣/٢ : ٨٧٦، ٨٧٧ ، والذخيرة ٣/٢ : ٨٧٥، ٨٧٦ ، والذخيرة ٤/١ : ٣٤٦- وديوان الرصافي البلنسي . ص ١٠٦ ، وديوان ابن حمديس ص ٦٦ ، ٢٧٧ ، ٣٦٣ .

بِتْنَـــا علـــى رغـــمِ الـــروا صـــدِ والحواسِـــدِ واللـــواحِ
في ليلـــــةٍ قـــــادَتْ إليَّ الوصـــلَ مْـــن بعـــدِ الجمـــاحِ
وأتـــى العنـــاقُ علـــى ضعيـــ ـــفٍ بـــين أثنـــاءِ الوشـــاحِ
حـــتى إذا ارتـــابَ الظـــلا مُ بفـــتحِ أجفـــانِ الأقـــاحِ
وجـــلا احمـــرار الفجـــر عَنْـــ ـــه بيـــاضُ صـــبح في اتّضـــاحِ
عـــاد الفـــراق إلى القطيـــ ـــعةِ بينَنَـــا بعـــدَ اصـــطلاحِ [1]

ويلوح أنّ قوة هذا التوجه الشعوري في الإحساس باقتران الصبح بقطع اللذة دفعت أحد الأندلسيين إلى تشبيه رقيبه الأسود البغيض بالصباح المفرّق للجمع . يقول أبو البركات بن الحاج البلفيقي (- ٧٧٣هـ) في هذا الرقيب :

ورقيـــب عدمتـــه مـــن رقيـــبٍ مظلـــم الوجـــهِ والقَفـــا والصـــفاتِ
هو كالليـــلِ مـــن ظـــلامٍ وعنـــدي هـــو كالصـــبحِ قـــاطعُ اللـــذاتِ [2]

١٥- الألغاز وموضوعات جزئية أخرى :

خاض الأندلسيون في عصورهم المتأخرة في موضوعات الاتجاه المحدث الجزئية ، فنظموا في الألغاز والمعمّيات ، وهي الأشعار التي تتضمن تضمين

---

(١) الذخيرة ٢/٣ : ٨٨٤ .

(٢) شعر أبي البركات ابن الحاج البلفيقي ، بعناية عبد الحميد عبد الله الهرامة . مطبوعات مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث بدبي ـ ط ١ ـ الإمارات العربية المتحدة ـ دبي ١٩٩٦م ، ص ٣١ . وذهب المستشرق منندث بيدال إلى أن موضوع الألبادا Laalbada أي الفجريات ، وهي مقطعات شعرية عرفها اللاتين باسم ألبتاتا albata تقال في افتراق الأحبة عند طلع الفجر . وهو الموضوع الذي كان يطرقه الزجل الأندلسي . هذا الموضوع دليل على عدم عروبة الزجل في رأيه ؛ لأن الفجريات مقطعات شعرية عرفها اللاتين ، انظر : تاريخ الفكر الأندلسي ص ١٥٥ ، ولكننا ذكرنا أن هذا الموضوع عرفه الشعر العربي منذ أقدم عصوره وهو مايدحض زَعْم ذلك المستشرق .

اسم المحبوب ، أو أي شيء آخر يرمي الشاعر إلى الكناية عنه ، أو تصحيفه ، أو قلبه[١] ، ورموا من ذلك إلى إظهار المقدرة أو الثقافة . ولكنهم حين أسرفوا في هذا المنحى أساؤوا إلى شعرهم الذي غدا مكبلاً بتلك الأحاجي ، وغدا نظماً سقيماً بريئاً من الفكر والشعور الحي .

ويبدو أن هذا الاتجاه المحدث في الشعر ماكان يسوغ لأصحاب المذهب القديم على نحو مايجلوه موقف الشاعر ابن دراج في إعراضه عن هذا المنحى الذي يقوم على إرهاق الذهن دونما غناء . فيروى « أن بعض الأدباء أرسل إلى أبي عمر القسطلي بأبيات لغز ، وسأله أن يفسرها ، فلم يتعب خاطره فيها ، وكتب على ظهر الرقعة بديهة :

إذا شذّتْ عن العَرَبِ المعاني فليس إلى تعرُّفها سبيلُ[٢]

ومن الموضوعات الجزئية التي توفروا عليها وصف الحمى[٣]، ومديح كتاب أو تفضيله[٤]، ووصف القلم[٥] ، وتصوير محنة العمى[٦] ، ووصف قطعة

---

(١) انظر : نماذج من الألغاز والمعميات في ديوان ابن الحداد ص ٢٣٩ ، ٣٠٧ ، وديوان لسان الدين ٥١/١، ٥٢ ، وديوان أمية بن أبي الصلت الأندلسي ص ٣٢- ٣٣ و ٣٣-٣٤ ، وديوان ابن خفاجة ص ٧٦، ٧٧ ، ونفح الطيب ٤٤٣/٥، ٤٤٤ ، ٤٥٠-٤٥٤ ، والذخيرة ٢/٢ : ٥٨٤ . ومن ذلك قصيدة للقلفاط جمع فيها بعض المسائل والأحاجي النحوية . انظر : طبقات الزبيدي ص ٣٠٤ .

(٢) جذوة المقتبس ص ١٠٥ ، وديوانه ص ٥٤١ .

(٣) انظر : ديوان ابن دراج ص ٩٩ .

(٤) انظر : ديوان ابن الحداد ص ٢٢٨، ٢٢٩، وانظر : شعر وموشحات الوزير ابن زمرك . تقديم حمدان حجاجي ص ١١٣ .

(٥) انظر : ديوان ابن عبد ربه ص ١٠٤ ، وديوان ابن خفاجة ص ٣٤٢، ٤٤٣ ، وديوان ابن حمديس ص ٢٠٣ ، وديوان لسان الدين ٤٠٣/١ .

(٦) انظر : أبيات أبي المخشي في الإحاطة ٢٣٣/٤، ٢٣٤ .

بحرية[١] ، ووصف البرغوث[٢] ، ووصف النحلة[٣] ، ووصف النملة[٤] ، وتفرد الغزال بطرقه بعض هذه الموضوعات الجزئية التي تصطبغ بالجدة ، كقصة تخيير الفتاة بين خاطبَيْن شاب وشيخ[٥] ، وتسويغ لحياة من لم يتزوج[٦] . ومن هذه الموضوعات الشعر ذو المنحى الأخلاقي والديني[٧] .

موضوعات المذهب القديم المحدث

١- المديح :

لعله أبرز الموضوعات الشعرية في المذهب المحافظ الجديد لاتباعه ـ في أغلب الأحيان ـ منهج القصيدة التقليدي[٨] ، ولإيثاره جزالة اللفظ ، ومتانة السبك ، وصخب الموسيقى ، وطول الأوزان . وعلى ذلك توفر شعراء البلاط على تدبيج مدائحهم للملوك والحكام ناهجين سبيل الغوص على المعنى

---

(١) انظر : المغرب ٣٨٩/٢ .

(٢) انظر : ديوان ابن شهيد ص ٨٧، ٨٨ ، وديوان أمية بن أبي الصلت الأندلسي ص ٨٤ ، وديوان لسان الدين ١٩٣/١ .

(٣) انظر : ديوان ابن شهيد ص ١٥٠ .

(٤) انظر : الذخيرة ٢/٢ : ٧٩٧ .

(٥) انظر : ديوانه ص ٦٢ .

(٦) انظر : ديوانه ص ٥٦ .

(٧) من ذلك الشعر في الحض على بر الوالدين . انظر : آثار أبي زيد الفازازي الأندلسي ص ٥٧-٦١ ، والحض على قيام الليل انظر : ص ٦٦ ، والحض على الحج والزيارة ص ١٦٦، ١٦٧ ، والحض على التقوى ص ٧٨-٨٤ ، وثمة شعر أخلاقي في ديوان ابن خاتمة ص ١٢٧-١٣٩ .

(٨) يتمثل هذا المنهج التقليدي في افتتاح القصيدة بالمقدمة الغزلية ، فحديث الرحلة ، فالمديح متبوعاً أحياناً بثناء الشاعر على قصيدته . ومن الأمثلة على هذا المنهج في قصائد المديح انظر : ديوان عبد الكريم القيسي ص ١٤٦-١٤٨ ، وكان هذا المنهج سمة لازمة في مدائح ابن الزقاق جميعها . انظر : مثلاً ديوانه ص ٦٣-٦٩، ٧٣-٧٩ ، وديوان ابن هانئ ص ٦٥٧-٦٩٨ .

وتوليده ، والتماس البديع سعياً وراء الزينة والوشي . ومن نماذج هذه المدائح قول ابن دراج من قصيدة يمدح بها المنصور العامري :

أضاءَ لـــها فجـرُ النُّهـى فنـهاهَا ... عن الـدّنفِ المضـنى بحَـرِّ هواهَـا

وضلّلها صبحٌ جَـلاَ ليلـةَ الـدجى ... وقـدْ كـانَ يهـديها إليَّ دُجاهَـا

سلامٌ على شـرخِ الشـبابِ مـردَّدٌ ... وآهـاً لوصـلِ الغانيـاتِ وآهَـا

ويالـديارِ اللـهوِ أقـوَتْ رسـومُها ... ومحّـت مغانيهـا وصـمَّ صـداهَا

وأحيي نفوسَ الركبِ من ميتةِ الكرى ... وقد عطفَ الليـلُ التمـامُ طُلاهـا

بذكرِ أيادي العامريّ الـتي طمَـتْ ... على نأيِ آفـاقِ الـبلادِ مناهَـا (١)

ويتغنى ابن مقانا الأشبوني بالمعاني الشيعية في مديح إدريس بن يحيى الحمودي أمير مالقة في قصيدته الشهيرة مقدّماً لها بالغزل والخمر والطبيعة منتهياً إلى المديح ذي الصبغة السياسية . يقول :

ألـبرقٍ لائـحٍ مـن أنـدرين ... ذرفـت عينـاكَ بالـدمع المعـين

وكـأنَّ الشـمس لـمّا أشـرقت ... فانثـت عنـها عيـون النـاظرين

وجهُ إدريس بـن يحـيى بـن علـيّ ... بـن حـمودٍ أمـيرِ المـؤمنين

يـابني أحـمدَ يـاخيرَ الـورى ... لأبـيكم كـانَ رفـدُ المسـلمين

انظرونـا نقتـبسْ مـن نـورِكُمْ ... إنـه مِـنْ نـورِ ربّ العـالمين (٢)

وتتبدى العناية بالصورة ، والإسراف في الاستعارة ، مع الشغف بالبديع في قصيدة ابن عمار الرائية في مديح المعتضد . فضلاً عن إيثار الجزالة وروعة السبك ، والموسيقى الهادرة . يقول :

عبّـادٌ المخضـرُّ نائـلُ كفّـهِ ... والجوُّ قـد لـبسَ الـرداءَ الأغـبرَا

أندى على الأكبادِ من قطـرِ النّـدى ... وألذُّ في الأجفانِ من سِـنَةِ الكَـرَى

---

(١) ديوانه ص ١٠-١٤ .

(٢) الذخيرة ٢/٢ : ٧٩١-٧٩٣ .

مَــنْ ذا ينــافحُنِي وذكــرُكَ منــدلٌ أوردتُهُ مِنْ نارِ فكــري مَجْمَــرَا [1]

ويقتفي الشاعر الأصم المرواني في قصيدته البائية التي يهنئ بها الخليفة عبد المؤمن بفتح جبل طارق ، ويمدحه ـ نهجَ أبي تمام في قصيدة عمورية في وصف جلال المناسبة ، وفي طابع الجزالة والفخامة ، وفي العناية بالبديع ولا سيما الجناس والطباق ، وفي جلاء الإشارات الثقافية ، ولا سيما التاريخية والدينية . يقول :

وطود طارقَ قــدْ حــلَّ الإمــامُ بِــهِ كالطّورِ كانَ لــموسى أيــمن الرُّتَبِ
مقلَّــبٌ بــينَ مشــتاةٍ وهــاجرةٍ تقلُّبَ السيفِ بينَ الــماءِ واللــهَبِ
يرمي بــهِم ظهرُ طرفٍ بطنَ ســابحةٍ فالبرُّ في شُــغُلٍ والبحــرُ في صَــخَبِ
ويلبس الدين غَضّــاً ثــوبَ عزّتــهِ كأنّ أيــامَ بــدرٍ عنْــهُ لَمْ تَغِــبِ [2]

٢- مشاهد وداع الأسرة :

ومن الموضوعات الجزئية التي عرفها الشعر الأندلسي وصف وداع الشاعر المداح لزوجه وأسرته ، وتصوير معاناة أبنائه في غيابه ، وإحساسه بمسؤوليته تجاههم . وهو موضوع فرضه الوضع الاجتماعي للشاعر الأندلسي الذي دفعته الظروف المتقلبة إلى التجوال بين الأمراء والأقاليم متكسباً بشعره ، ساعياً إلى نيل رضا الممدوح ؛ فكان يتخير مدخلاً عاطفيًّا ينفذ منه إلى استعطاف ممدوحه . مع أن هذا الوصف لم يكن على الدوام وصفاً واقعيًّا ، وإنما كان محض أسلوب فني يحفل بالدلالات الاجتماعية والمشاعر النفسية المتمثلة في قلق الشاعر الأندلسي ، وافتقاده الاستقرار ، وتحرقه على الظفر برضا الممدوح ونواله .

---

(١) نفح الطيب ١/٦٥٥، ٦٥٦ .

(٢) ابن أبي صاحب الصلاة ، تأريخ المن بالإمامة تحقيق دكتور عبد الهادي التازي ـ الجمهورية العراقية ـ وزارة الثقافة والفنون ، ١٩٧٩م ، ص١٥٦، ١٥٧ .

ويطل ابن دراج في هذا المنحى على نحو باهر ، إذ كان أبرز من تخيّر هذا المدخل العاطفي في مدائحه مع كونه غيرَ مألوف في مجمل الشعر العربي ، لأن الشاعر العربي كان يتحرج من التغزل بزوجه ، أو الإلمام بذكرها كثيراً مما يضفي على هذا المسلك روحاً من التجديد والجرأة . وقد أكثر ابن دراج من وصف مشاهد فراق الزوج والأبناء ، واستقصى جزئياتها مبرزاً الجانب العاطفي الذي يسود تلك المواقف الإنسانية[1] . يقول في أحد هذه المشاهد :

وللهِ عَزْمي يومَ ودّعْتُ نحوَهُ نفوساً شجاني بيْنُها وشَجاهَا
وربة خدرٍ كالجمانِ دموعُهَا عزيزٌ على قلبي شُطوطُ نواهَا
وبنتَ ثمانٍ مايزالُ يروعُني على النأي تذكاري خفوقَ حَشَاهَا
وأنّى لها مثوى أبيها وقَدْ دَعَتْ بوارقُ كفّ العامريِّ أباهَا [2]

ويصف تشرُّد أبنائه ومعاناتهم أهوال الرحيل ومشاقّه يعتسفون الصحارى المحرقة ، ويخوضون البحار المزبدة فزعاً إلى جود الممدوح تتملكهم الهموم والأحزان ، ويراودهم الصبر والتجمُّل . يقول في هؤلاء الستة :

في ستّةٍ ضعفوا وضُعِّف عدُّهم حملاً لمبهورِ الفؤادِ مبلَّدِ
شدّ الجلاءُ رحالَهُمْ فتحمَّلَتْ أفلاذُ ـ قلبٍ بالهموم مبلَّدِ
وحدَتْ بهِمْ صعقاتُ روع شَرَّدَتْ أوطانَهُمْ في الأرضِ كلَّ مشرَّدِ
واستوطنوا فزعاً إلى بحرِ الندى أهوالَ بحرٍ ذي غواربَ مزبدِ[3]

وتقيل الأعمى التطيلي سبيل ابن دراج في بعض مقدمات مدائحه ، فوصف قروح النأي عن الأسرة مبرزاً دموع الأم الوالهة العجوز ، وشوق الزوج الجازعة ، وبغام الوليد الصغير يقول :

---

(١) انظر : هذه المواقف في ديوانه ١٣-١٤، ١١٠-١١١-١١٢، ٢٩٧، ٥٠٢، ٥٣٦ .
(٢) ديوانه ص ١٣، ١٤ .
(٣) ديوانه ص ٧٤ .

أقــــولُ وهـــــزّتْني إليـــــكِ أريجـــــةٌ كما مال غصـــنٌ أو تـــرنّح نشـــوانُ
وفي المهـــدِ مبغـــومُ النـــداءِ وكلّمـــا أهابَ بشوقي فهو قـــسٌّ وســـحبانُ
وأخرى قد استفَّ الزمـــانُ شـــبابَهَا ولم يروهـــا إنَّ الزمـــانَ لظمـــآنُ
بكَتْ ولأمر مـــا بكـــتْ أمُّ واحـــدٍ لـــها كلَّ يـــومٍ مـــن تفقُّـــدِهِ شـــانُ
وجازعـــةٍ للـــبينِ مثلـــي ولمْ تكُـــنْ لتسلو ولو أنَّ التلاقـــيَ ســـلوانُ [1]

وبعد . فقد تفرد الشعر الأندلسي بين المذاهب الشعرية بشأن خاص تبدى في شيوع موضوعات دون أخرى ضمن مذهب بعينه ، وفي اصطباغ بعض الموضوعات بصبغة خاصة استجابة للواقع الأندلسي المتميز ، وبرزت لديهم منازع جديدة فيها ، كما فرض ذاك الواقع موضوعات جديدة أساسية وجزئية منحت الشعر الأندلسي لوناً فارقاً وسمات فريدة .

(١) ديوانـه : ص ٢٢٢ ، وانظر أيضاً : موقفاً له شبيهاً بهذا في ديوانه ص ٥٥، ٥٦ .

obeikandl.com

الشكل الفني للقصيدة الأندلسية بين المحافظة والتجديد

١- مقدمة القصيدة :

تراوح ميل الذوق الأندلسي في هذه القضية بين إيثار للمطلع التقليدي المتمثل في الطلل ، أو الغزل ، أو حديث الطيف ، وبين التخفف منه ـ ولا سيما في المدائح ـ واستبدال حديث الطبيعة والروض به .

وقد استمر التمسك بالمطلع التقليدي لدى شعراء طريقة العرب في موضوعات الشعر عامة ، وخصوصاً المديح ، والغزل ، والفخر ، ولدى شعراء المذهب المحافظ المجدد المداحين[١]. وقد حرص الحاكم الممدوح في بعض الأحيان على استبقاء المقدمة الغزلية في المدائح . فهذا ابن خفاجة يتلقى طلباً من ممدوحه بافتتاح مدحته بالغزل . إذ خاطب الوزير أبو القاسم بن الرقيق الشاعر ابن خفاجة عقب زيارته للأمير أبي إسحاق بن إبراهيم قائلاً ((السلطان يريد أن تقول فيه شعراً تفتتحه بالغزل))[٢]. وأثار تخفُّف الشاعر الأندلسي من هذا المطلع في بعض الأحيان إنكار الممدوح الذي لم يرقه انسلاخ شاعره من التقليد الفني الصارم . فهذا القاضي ابن حمدين وقد مدحه هلال البياني ((بقصيدة أولها :

عرِّجْ على ذاكَ الجنابِ العالي ... واحكمْ على الأموالِ بالآمالِ

فيه ابنُ حمدين الذي لنوالِهِ ... من كلِّ أرضٍ شُدّ كلُّ رحالِ

---

(١) من الأمثلة على هذه المطالع . انظر : ديوان ابن دراج ص ١١ ، وشعر وموشحات الوزير ابن زمرك الأندلسي ص ٩١، والذخيرة ٢/١ : ٧٦٣ ، ٢/٢ : ٦٣١- ٦٣٢ ، ٢/٢ :٧٨٨ ، وديوان ابن زيدون ص ٣٢٤، ٣٢٥ ، ٣٤٣-٣٤٦ ، وديوان لسان الدين ابن الخطيب ٢٦٧/١ .

(٢) ديوان ابن خفاجة ص ١٠٦ .

فقال له القاضي : ماهذا الوثوب على المدح من أول وهلة ، ألا تدري أنهم عابوا ذلك ، كما عابوا الطول أيضاً ، وأنّ الأولى التوسط؟ فقال : ياسيدي . اعذرني بما لك في قلبي من الإجلال والمحبة ، فإني كلما ابتدأت في مدحك لم يتركني غرامي في اسمك إلى أن أتركه عند أول بيت ، فاستحسن ذلك منه وأحسن إليه))[1].

ويلوح أن الشاعر الأندلسي اتخذ من هذا المطلع رمزاً يفصح من خلاله عن لواعجه الدفينة وأشجانه الخفية ، وخصوصاً شاعر البلاط المداح الذي كانت تقاليد القصيدة المدحية الصارمة تحول بينه وبين البوح بمعاناته الذاتية وهمومه الخاصة ، فرام التنفيس عن شجونه في حديث الطلل الزاخر بمعاني النأي والفرقة وشحنات الألم واللوعة[2] . فهاهو ذا ابن دراج يلتمس في مشهد الطلل العافي ومعاني الوداع والبين معادلاً لغربته النفسية ، ومنعكساً لحنينه الجارف إلى قرطبة وهو يعيش في كنف المنذر بن يحيى صاحب سرقسطة . يقول مُودِعاً هذا الإطار الطللي دموعه وحنينه العارم إلى الوطن الثاوي بين جوانحه :

يامعهداً لم يُضعْ عهدَ الوفاءِ لَهُ ... مكسفُ النورِ عافي القدرِ ضائعُهُ
ولا ثنى عبراتي عنْ تذكُّرِهِ ... دهرٌ تقارع في صدري قوارعُهُ
حسبي ضلوعٌ ثوتْ فيها مصائبُهُ ... ومقلةٌ ربعَتْ فيها مرابعُهُ
سقاك مثلُ الذي عفّى رُباكَ عسى ... يُنبيكَ كيف غريبُ الرّحلِ شاسعُهُ
صَبًا كتصعيدِ أنفاسي وصوبَ حيًا ... تريك عبرةَ أجفاني مدامعُهُ
للهِ منْ وطنٍ قلبي له وطنٌ ... يبلى وأبلى وما تبلى فجائعُهُ[3]

---

(١) نفح الطيب ٥٣٨/٣ .

(٢) الحق أن هذا المنحى لايقتصر على الشاعر الأندلسي وحده ، بل عرفه الشعر العربي التقليدي منذ الجاهلية وعلى امتداد تاريخ الشعر المشرقي ؛ إذ كان الشاعر يتخذ من المقدمة الطللية ـ في كثير من الأحيان ـ رمزاً لمشاعره الخاصة وتجاربه الوجدانية .

(٣) ديوانه ص ١٣٨ .

ولكن التشبث بالمقدمة التقليدية ـ غزلية أو طللية ـ بلغ لدى بعض الشعراء حدّ التعسف مما أحالها جزءاً غير مقبول أو مسوغ في القصيدة ؛ وذلك حين كان الموقف النفسي والفني لايقتضيها ، بل لايحتملها . ولنا أن نتساءل أمام المطلع التالي للسان الدين بن الخطيب ماجدوى حديث الهوى والعذل وذكرى زمان الوصل المنصرم إزاء واقعة عظيمة كالتي نزلت بالمسلمين في (طريف) . يقول منشداً السلطان أبا الحجاج عقب الكائنة العظمى بطريف :

قلبي وسمعي في شغل عن الفند ... فأقصر اللوم عني اليوم أو فزدِ

قد كنتُ أصغي لما توحي إليَّ به ... لو كان قلبي قبل اليوم طوعَ يدي

وكم كتمتُ وأسررت الهوى زمناً ... طيَّ الجوانح حتى خانني جلدي[1]

وانتقد أنصار المطلع الغزلي ـ على تأييدهم له ـ إسراف الشاعر في حديث الحب وإفراغ مجهوده فيه حتى إذا ماوصل إلى المديح غايته الأساسية قصّر فيه وألم به في أبيات معدودات دون أن يستوفيه . فهذا ابن شهيد يستهجن صنيع ثلة من الشعراء أنشدوا أحد الممدوحين قصائد صدورُها ((لزينب والرباب ولميس وفرتنى ، وأعجازُها للجود والكرم ، وبذل اللهى ، ولم يلمم أحد منهم بذلك الغرض والمغزى إلا في بيتين أو ثلاثة))[2] .

وأفضى هذا الإسهاب في النسيب إلى إصابة الممدوح بالسآمة والضجر ، ومن ثَمَّ انصرافه عن المدائح المنشدة على النحو الذي ألمّ بالمأمون بن ذي النون حين أنشده نفر من الشعراء قصائدهم يقدمهم ابن شرف القيرواني (- ٤٦٠هـ) بقصيدة ((ماإن هي لاحقة بعيون شعره أطال فيها التشبيب ، فخلص إلى التهنئة ، وقد استفرغ القريحة وطوّل فما أتى بطائل))[3] ، وسار على سننه عبد الله بن خليفة الأندلسي ، فمحمد بن زكي الأشبوني ، فلم يكن حظهما من رضا الممدوح بأوفى من حظه[4] .

---

(١) ديوانه ١/٢٧٤، ٢٧٥ .

(٢) الذخيرة ١/١ : ٣١٩ .

(٣) الذخيرة ١/٤ : ١٣٩ .

(٤) انظر : الحادثة في الذخيرة ١/٤ : ١٣٨-١٤٠ .

ويلوح أن الاتجاه المحدث أخذ يضيق بالمقدمة الطللية ، وينزع إلى التخفف منها واستبدال حديث الطبيعة والروض بها . ولذا أنكروا على ابن خفاجة إيثاره لهذا المسلك الاستهلالي . يقول الشاعر منافحاً عن منحاه ذاك : ((لعل ماينعاه وينكره إنما هو مانحن نختاره ونؤثره من ذكر التلدُّد والتبلُّد في الديار نحيّيها وندبها تارة ونبكيها كقولنا...))[1] . ولكن أنصار القديم تشبثوا بهذا التقليد الفني ، وظلوا على ارتباطهم الشعوري به على الرغم من مجاراتهم في بعض الأحيان لاتجاه شعري محدث كالمقدمة الخمرية . فهذا ابن حزم يحاكي مذهب أبي نواس في المطلع الخمري على سبيل التقليد الفني ، وإجابةً لرغبة إحدى سيدات البلاط مع استهجانه لحديث الخمر أصلاً ، وإيثاره لمعنى البكاء على الرسوم انسجاماً مع طبعه في الوفاء ، ونفوره من الغدر والسلوّ . يقول معتذراً عن إلمامه بهذا الموضوع :

((خلِّ هذا وبادرِ الدهَر وارحل ... في رياض الربى مطيّ العقارِ

واحدُها بالبديع من نغماتِ الـ ... ـعودِ كيما تحثُّ بالمزمارِ

إنّ خيراً من الوقوفِ على الدا ... رِ وقوفُ البنانِ بالأوتارِ

وبدا النرجسُ البديعُ كصبٍّ ... حائرِ الطرفِ مائلاً كالمدارِ

لونُهُ لونُ عاشقٍ مستهامٍ ... وهو لاشكّ هائمٌ بالبهارِ

ومعاذ الله أن يكون نسيان مادرس لنا طبعاً ، ومعصية الله بشرب الراح لنا خلقاً... ولكن حسبنا قوله تعالى ومن أصدق من الله قيلاً في الشعراء ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ** ﴾ (الشعراء:٢٢٥،٢٢٦) فهذه شهادة الله العزيز الجبار لهم . ولكن شذوذ القائل للشعر عن مرتبة الشعر خطأ . وكان سبب هذه الأبيات أنّ ضنى العامرية إحدى كرائم المظفر عبد الملك بن أبي عامر كلفتني صنعها فأجبتها ..))[2].

---

(١) ديوانه . المقدمة : ص ١٥ .

(٢) طوق الحمامة . ضبط نصه وحرر هوامشه دكتور الطاهر أحمد مكي ـ ط ٣ ـ دار المعارف ص١٣٨، ١٣٩ .

ويلوح أن مذهب استبدال المقدمة الخمرية بالطللية لم يلق هوى لدى الأندلسيين ـ في الغالب ـ إذ فضلوا عليه المقدمة الروضية ، فكانت النماذج التي تنضوي تحت ذاك المذهب قليلة لاتكوّن ظاهرة جلية ، أو نزوعاً قويًّا . فنرى ابن شهيد يستهل إحدى مدائحه بحديث الخمر والساقية والغناء مقتفياً أثر والده في هذا المنحى المحدث على الرغم من أن جمهرة شعره تنزع إلى الاتجاه المحافظ . يقول بعد إنشاده قطعة شعرية لأبيه قال فيها :

((**قهقهةَ الإبريقُ مني ضحكاً ورأى رعشةَ رجلي فبكى** . .

فإن استهل الطاعنُ صارخاً وقال : هكذا الشعر وهكذا الطبع ، وهذا الماء رقةً وعذوبةً والهواء لطافة وسهولة . . قلنا له :

أذَّنَ الديكُ فثُبْ أو ثَوّبِ وانضَحِ القلبَ بماءِ العنبِ

ركعَ الإبريقُ من طاعتهِ وبكى فابتلّ ثوبُ الأكؤبِ[1] ...))

وحتى في القصائد التي آثرت هذا المطلع الخمري لم يأت حديث الخمر فيها خالصاً ، بل ممزوجاً بحديث الطبيعة الذي كان طاغياً . نحو مقدمة هذه القصيدة لابن عمار في مديح المعتضد العبادي التي لايعدو فيها الإلمام بالخمر الذكرَ العارض وسط الافتتان البالغ بمشاهد الطبيعة :

أدرِ المدامةَ فالنسيمُ قد انبرى والنجمُ قدْ صرفَ العنانَ عن السُّرَى

والصبحُ قدْ أهدَى لنا كافورَهُ لمّا استردّ الليلُ منّا العنبرَا

والروضُ كالحسْنَا كسَاهُ زهرُه وشياً وقلّده نداهُ جوهَرَا [2]

أما المقدمة الطبيعية أو الروضية ، فشغف بها محدثو الأندلسيين ، وأكثروا منها ـ ولا سيما في المدائح ـ متأثرين في ذلك بأعلام شعراء المشرق المجددين كأبي تمام والبحتري وغيرهما مستلهمين في الوقت نفسه بيئتهم

---

(١) الذخيرة ١/١ : ٢١٠، ٢١١ ، وديوانه ص ٩٢ .

(٢) نفح الطيب ٦٥٥/١ .

الطبيعية الزاخرة بمجالي الجمال والفتنة . ولكن الأندلسيين فاقوا المشارقة في كلفهم بهذه المطالع ؛ إذ تجاوزت لديهم الخطوات الفردية لتتحول إلى ظاهرة قوية واتجاه مألوف في قصائدهم[1] . وتتعزز هذه الحقيقة إذا ماعلمنا أن الكثير من المقطعات الشعرية في وصف الزهور والرياض التي أوردها المؤلفون ومؤرخو الأدب منفردة ، إنما هي مقدمات لقصائد المديح ، والغزل ، والرثاء ، وغيرها من موضوعات الشعر .

ويلوح في بعض هذه المقدمات أثر أبي تمام في التأمل الذهني في أسرار الطبيعة ، والغوص على المعاني وتوليدها ، والجمع بين المتشابهات والمتناقضات ، والولوع بالصورة الفنية ، وتشخيص الطبيعة ، وتقريبها من الواقع الإنساني في المزاج والطباع على النحو الذي تجلوه هذه المقدمة للشاعر الرمادي في مديح عبد العزيز ابن القرشية :

تأمّلْ بإثرِ الغيمِ مِنْ زهرةِ الثرى حياةَ عيونٍ متْنَ قبلَ التنعُّمِ
كأنّ الربيعَ الطَّلْقَ أقبلَ مُهدياً بطلعةِ معشوقٍ إلى عينِ مغرَمِ
تعجّبْتُ من غوصِ الحَيَا في حَشَا الثَّرَى فأفشى الذي فيهِ ولَمْ يَتَكَلَّمِ
أرى حُسُنًا في صفحةٍ قدْ تغيّرَتْ كبشرٍ بدَا في الوجهِ بعدَ التَجَهُّمِ[2]

ومن نماذج المقدمات الطبيعية قول ابن هانئ يقدم لمديح المعز لدين الله بحديث الغيث والسحاب والريح والبرق . فيقول :

أَلؤلؤٌ دمعُ هذا الغيثِ أم نُقَطُ ماكانَ أحسنَهُ لو كانَ يُلتقطُ

---

(١) من الأمثلة على هذه المطالع . انظر : الحميري . ابن حبيب . البديع في فصل الربيع ص ١٤- ١٥- ٢١ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٤٤ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٢٨- ٢٩ ، ٥٧ ، ٧٩ ، ٨٣- ٨٤ ، ١٢٣- ١٢٤ ، ١٢٧ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، وبهنام دكتورة هدى شوكة . شعر أبي بكر بن القوطية . مجلة المورد ص ٩٥- ٩٦ ، ٩٨- ٩٩ ، وديوان ابن الزقاق ص ١١٥، ١١٦ .

(٢) الحميري . أبو الوليد . البديع في وصف الربيع ص ١٤ .

بينَ السحابِ وبينَ الـريحِ ملحمـةٌ قعـاقعٌ وظُـبى في الجـوِّ تختـرطُ

كأنه ساخطٌ يرضـى علـى عجـلٍ فما يدومُ رضًا منْـهُ ولا سَـخَطُ (١)

وكثيراً ماكان الشاعر في هذه المطالع يمزج حديث الطبيعة بالغزل . من ذلك قول ابن الحداد متغنياً بالجمال الطبيعي وهو في أبهى حالاته إذ يضم الجمال البشري . يقول في مديح المعتصم بن صمادح :

سَلِ البانةَ الغيناءَ عنْ ملعـبِ الجُـرْدِ وروضَتَها الغنّاءَ عـنْ رشـأ الأسـدِ

وسجسجَ ذاكَ الظلّ عن مُلْهِبِ الحَشَا وسلسلَ ذاكَ الماءِ عنْ مضرمِ الوجـدِ

وفي الجنـةِ الألفـافِ أحـورُ أزهـرٌ تلاعب قُضْب الرّند فيه قنا الهنـدِ (٢)

ولا ريب في أن هذا المنحى أشد بروزاً لدى ابن زيدون ؛ فهو من أكثر شعراء الأندلس مزجاً للغزل بالطبيعة في مقدمات قصائده فضلاً عن بقية أجزاء شعره(٣) .

واتخذ الشاعر الأندلسي من مظاهر الطبيعة مدخلاً لمعاني الأسى والألم لدى فقدان المرثي وبكائه مضفياً على الطبيعة مشاعره الحزينة ملتمساً لديها العزاء والسلوان على النحو الذي يتبدى في رثاء ابن حمديس لجاريته جوهرة(٤) ، ورثائه الشريف الفهري(٥) ، وكما يظهر في رثاء ابن خفاجة صديقه الوزير أبا محمد عبد الله بن ربيعة في قوله :

في كـل نـادٍ منـكَ روضُ ثنـاءٍ وبكـلّ خـدّ فيـكَ جـدولُ مـاءِ

---

(١) ديوانه . صححه وهذّبه وشرحه دكتور زاهد علي . مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر ، ١٣٥٠هـ ، ص ٣٩٠، ٣٩١ .

(٢) ديوانه ص ١٩٦، ١٩٧ .

(٣) انظر مثلاً : ديوانه ص ١٣٩- ١٤٠ ، ١٤٣ ، ١٤٤- ١٤٥- ١٤٦ ، ٢١٥- ٢١٦ ، ٣١٥ ، ٣٢٤ ، ٣٢٩ ، ٣٣٨- ٣٣٩ ، ٣٤٠- ٣٤١ .

(٤) انظر : ديوانه ص ٢١٢، ٢١٣ .

(٥) انظر : ديوانه ص ١٦٣-١٦٥ .

ولكلِّ شخصٍ هزّةُ الغصنِ النّدي تحتَ البكاءِ ورنّةُ المُكّاءِ
ولطالما كنّا نريحُ بظلّهِ فنُريحُ منه بسرحةٍ غيناءِ
تتفرّج الغمّاءُ عنْهُ كأنّهُ قمرٌ يمزّقُ شملةَ الظلماءِ (١)

وامتاز شعراء الأندلس بالإبداع في التخلص من حديث الطبيعة إلى ذكر الممدوح والتنويه بشأنه ، فأجادوا في الربط بين معاني الطبيعة ومعاني المديح على نحو يظهر في أغلب مطالعهم الطبيعية(٢) كما تبدى ذلك في رائية ابن عمار في مديح المعتضد . وهذا الرمادي ينتقل من حديث المطر ، والثرى ، والسحاب السابق إلى الإشادة بالممدوح بعقد مفاخرة بين السماء والأرض تزهو فيها الأرض بخضرتها الفاتنة على خضرة السماء ، وبنوّارها البراق على الأنجم الوقادة ، كما تبأى على الكواكب السماوية جميعاً بممدوحها الذي حاز أعلى مراقي السؤدد والسناء . يقول :

ألا ياسماءَ الأرضِ أُعطيتِ بهجةً تطالعُنا منها بوجهٍ مقسَّمِ
وإنْ قالتِ الأرضُ المنعّمُ أرضُها لِيَ الفضلُ في فخري عليكِ فسلّمي
فخضرةُ مافيها يفوقكِ خضرةً ونوّارُها فيها ثواقبُ أنجمِ
وإن جئتِها بالشمسِ والبدرِ والحَيَا مفاخرةً جاءتْ بأسنى وأكرمِ
بعبدِ العزيزِ بنِ الخلائفِ والذي جميعُ المعالي تنتمي حيثُ ينتمي (٣)

وعلى هذا النحو يربط ابن هانئ بين مظاهر الطبيعة وحديث المدح بعقد مشابهة بين أريج الرياح الربيعية ونفحات الممدوح التي تضوع جوداً . يقول :

والريحُ تبعثُ أنفاساً معطّرةً مثلَ العبيرِ بماءِ الوردِ يختلطُ

---

(١) ديوانه ص ١٧٨، ١٧٩ .

(٢) انظر : نماذج من هذا الربط بين معاني الطبيعة ومعاني المديح في ديوان ابن شهيد ص١٥٩ ، وديوان ابن الحداد ص ١٩٩ ، والبديع في وصف الربيع ص ٣١ ، ٥٩ ، والذخيرة ٢/١ : ٢٠٠- ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢١٠- ٢١١ .

(٣) البديع ص ١٤، ١٥ .

كأنــما هي أنفــاسُ المعــزّ ســرَتْ لا شبهةٌ للندى فيهــا ولا غلــطُ [1]

وحظي هذا المسلك التجديدي في مقدمة القصيدة بإعجاب الذوق الأدبي لدى الأدباء والمؤلفين ، ولدى الممدوحين أنفسهم . يقول أبو الوليد الحميري معلقاً على أبيات الرمادي السالفة معلياً من هذا المنحى : ((ودخوله في هذا الموضع إلى المدح ، ومفاخرته بين السماء والأرض من المعاني التي سبق فيها ، واستولى على الأمد بها))[2] ، ويستحسن النهج ذاته في مطلع آخر للشاعر يقول : ((ودخوله إلى المدح في هذا الموضع مفضَّل له مستحسن منه))[3] . وحين أنشد أبو الوليد الحميري المعتضد العبادي قصيدة له في ذلك الباب يعارض بها قصيدة أخرى لأبي الحسن بن علي سُرَّ بها سروراً فائقاً ، وأمر الشاعر باستحضار شعراء آخرين ، وكلّفهم بمعارضتها[4] .

ولاح لدى بعض الشعراء منزع طريف في مطلع القصيدة المدحية تمثّل في التقديم لأبيات المديح بأبيات في الثناء على الله تعالى ، وحمده على نعمه ، والدعوة إلى التأمل في عجائب صنعه . يقول الشاعر الفازازي في هذه المعاني متخلصاً إلى الإشادة بالممدوح ، منوّهاً بذبّه عن حمى العقيدة والدين :

بــذكركَ نســتكفي وإيــاكَ نعبــدُ وأنتَ الذي نــدعو وأنــتَ نوحّــدُ
فيــا أيهــا الآوي إلى غــيرِ بابــهِ أفقْ لــيس إلا اللهُ يُرجــى ويُقصــدُ
تأمّــلْ فصُــنْعُ اللهِ جــلّ ثنــاؤُهُ عليــكَ بوحدانيــةِ اللهِ يشــهدُ
ومــن لطفــهِ ســبحانَهُ بعبــادِهِ إمــامٌ معــانٌ بالقضــاءِ مســدّدُ
حمى بيضةَ الإسلامِ والطرفُ مطــرقٌ وشدّ عرى التوحيدِ والسيفُ مُغمدُ[5]

---

(١) ديوانه ص ٣٩٢ .
(٢) البديع ص ١٥ . (٣) البديع ص ١٢ .
(٤) انظر : الحادثة وشعر الشعراء في البديع ص ٤٧-٥١ .
(٥) آثار أبي زيد الفازازي الأندلسي ص ٩٠، وانظر : الملمح ذاته في قصيدة أخرى له ٩٢-٩٤، وكذلك في قصيدة ثالثة ٩٤، ٩٥ .

ويستهل ابن زمرك إحدى مدائحه لسلطانه الغني بالله بالثناء على الله جلّ وعلا ، والتأمل في بديع صنعه وعجيب قدرته ، والشدو بنعمائه ، فالصلاة على خاتم المرسلين والثناء عليه ، فالانتقال إلى المديح . يقول :

هــذي المعــالُم لفــظٌ أنــتَ معنــاهُ كــلٌّ يقــول إذا اســتنطقتَهُ اللهُ

من نورِ وجهِكَ ضاءَ الكــونُ أجمعُــهُ حــتى تشــيَّدَ بــالأفلاكِ مبنــاهُ

سبحانَ من أوجدَ الأشياءَ مــن عــدمٍ وأوسعَ الكونَ قبــلَ الكــونِ نعمــاهُ

ثمَّ الصــلاةُ صــلاةُ اللهِ دائمــةً على الذي باســمِه في الذكرِ سـمّاهُ[1]

وبذلك ترجح مطلع القصيدة الأندلسية بين الحفاظ على المطلع القديم من طلل ، وغزل ، وطيف لدى أنصار المذهب القديم ، والقديم المحدث ، والتجديد في إيثار المقدمة الطبيعية والإكثار منها لدى المحدثين منهم الذين امتازوا بالبراعة في التخلص من حديث الطبيعة إلى معاني المديح ، وبرز منزع طريف في المطلع تجسد في التقديم للقصيدة بذكر الله تعالى ، والثناء عليه .

٢- التجديد في البناء العروضي للقصيدة

برز لدى أصحاب الاتجاه المحدث ضروب من التجديد في بناء القصيدة العروضي ، فتلقانا محاولات للخروج على نظام القصيدة التقليدي في القافية الواحدة تمثلت في نظم المزدوج ، والمخمسات ، والمسدسات ، والمعشرات ، وتوّجت هذه المحاولات التجديدية باختراع الموشحات أظهر إبداع أندلسي على الإطلاق تجلى فيه التجديد الصارخ في الوزن والقافية معاً .

أما المزدوج فضربٌ مستحدث من الفن المجدد في القوافي ؛ إذ لاتطرد القافية فيه في الأبيات ، بل تختلف من بيت إلى آخر ، وتتحد في الشطرين المتقابلين ، وتنظم عادة من بحر الرجز[2] . وأثر عن الشاعر السميسر أنه كان

---

(١) شعر وموشحات الوزير ابن زمرك الأندلسي ص ٩٨، ٩٩ ، ونفح الطيب ١٧١/٥ .

(٢) انظر : ضيف . دكتور شوقي . العصر العباسي الأول ١٩٦، ١٩٧ .

ينظم المزدوج ؛ وهو مقطعات قصيرة كان ينظمها في الهجاء والزهد . يقول ابن بسام عنه : ((وهو صاحب مزدوج كأنه حذا فيه حذوَ منصور الفقيه ، وله طبع حسن ، وتصرف مستحسن في مقطوعات الأبيات ، وخاصة إذا هجا وقدح ، وأما إذا طوَّل ومدح فقلّما رأيته أفلح ولا أنجح))[1] . ويلوح الجانب التجديدي لدى السميسر في الإيجاز الشديد في عدد الأبيات فـ ((كان في شعره يتكئ على أصغر وحدة في المقطوعة ؛ إذ يبنيها على بيتين لاغير مع التنويع في الوزن ...))[2] ، ويظهر أنه حاكى في هذا المنزع المجدد الشاعر المشرقي منصور الفقيه[3] . ومع أن هذا التجديد إنما هو تجديد يسير فقد برع فيه السميسر ، وغدا سمة براعته وميدان امتيازه إذ كان يقصّر ـ كما يلوح ـ حين يجاوزه إلى التطويل . ومن شعره في المزدوج قوله هاجياً المريّة :

بئس دارُ المريّةِ اليومَ دارا ليس فيها لساكنٍ مايُحَبُّ
بلدةٌ لاتُمارُ إلا بريحٍ ربّما قد تهبُّ أو لاتهبّ [4]

وتجلى هذا المنحى أيضاً لدى الشاعر ابن صارة الذي كان يوجز في أهاجيه ، فلا تكاد مقطوعاته تتجاوز البيتين إلا نادراً يسوق فيها الشعر على سبيل النكتة أو المثل . مما أعان على شيوعها وسيرورتها بين الناس[5].

---

(١) الذخيرة ٢/١ : ٨٨٧ .

(٢) الكيلاني دكتور حلمي ، السميسر حياته وشعره . هامش ص ١٢٢ . رقم ٧٩ .

(٣) هو أبو الحسن منصور بن إسماعيل بن عمر التميمي الفقيه الشافعي الضرير . أصله من رأس عين بالجزيرة . قدم مصر وتوفي بها سنة ٣٠٦هـ . كان فقيهاً جليل القدر له مصنفات جيدة في مذهبه ، وشاعراً مجيداً مكثراً من النظم في الأخلاق والحكم . انظر : ياقوت الحموي .. معجم الأدباء ـ ط ٣ ، ١٩٨٠م ، ١٨٥/١٩- ١٩٠.

(٤) الذخيرة ٢/١ : ٨٨٤ .

(٥) انظر : عوض الكريم . دكتور مصطفى . ابن صارة الأندلسي ص ٣٠ ، وانظر أشعار الهجاء لديه ص ٩٢-٩٤ .

ومن مظاهر التجديد في القافية ما ذهب إليه أبو إسحاق الإلبيري من بناء القصيدة على قافية واحدة بعينها ، فقد بنى إحدى قصائده التي تبلغ ثلاثة وخمسين بيتاً على لفظ الجلالة (الله) ، وبنى قصيدة أخرى تبلغ ثمانية وثلاثين بيتاً على لفظ (النار) . يقول في الأولى :

يـــا أيهـــا المغتـــرُّ بـــاللهِ فِـــــرَّ مـــــن الله إلى اللهِ
ولُـــذْ بـــه واســـأله مـــن فضـــلِه فقـــد نجـــا مَـــنْ لاذَ بـــاللهِ (١)

ونظم الأندلسيون في المخمسات ، والمسدسات ، والمعشرات . والمخمسات قصائد تتألف من أدوار ، ويتركب كل دور من خمسة شطور . تتفق شطور كل دور في قافية واحدة . أما الشطران الأخيران فيستقلان بقافية مغايرة . وكان المديح النبوي من أكثر الموضوعات التي نظم فيها الأندلسيون المخمسات(٢) . ومن نماذج هذا الفن قول ابن الجنان في مدح النبي الكريم ﷺ :

جلَّت معاني الـهاشـــميِّ المرسَـلِ
وتجلّـــتِ الأنـــوارُ منـــه لمجتلـــي
وســـما به قـــدرُ الفخـــارِ المعتلـــي
فاحتـــلّ في أفْـــقِ الســـماءِ مقيمـــا صلُّوا عليـــه وســـلِّموا تســـليما (٣)

---

(١) ديوانه . حققه وشرحه واستدرك فائته دكتور محمد رضوان الداية . دار الفكر المعاصر ـ بيروت ـ لبنان ـ دار الفكر دمشق ـ سورية ـ ط ١، ١٩٩١م ، ص٧٥ ، وانظر : قصيدته الأخرى ص ١٠١-١٠٤ .

(٢) من الأندلسيين الذين نظموا المخمسات ابن الجنان ، وابن سهل الإشبيلي ، ومالك ابن المرحل ، وابن عبدوس القرطبي ،وأحمد بن القاسم الإشبيلي الشهير بابن القصير . انظر : مخمسات هؤلاء في النفح ٤٣٢/٧-٤٧٠ .

(٣) نفح الطيب ٤٣٢/٧ .

ونظموا كذلك المسدسات في المديح النبوي ، والمسدسات قصائد تتألف من أدوار ، ويتركب كل دور فيها من ستة أبيات تتفق الشطور الأربعة الأولى في القافية بينما يتفق الشطران الأخيران في قافية مغايرة[١] .

أما المعشرات فـ ((شكل شعري تتألف القصيدة فيه من عشرة أبيات تبنى كلها على حرف واحد تبدأ به وتختتم ، وترتب على حروف المعجم وتكون من بحر واحد))[٢]، وذاع فيها موضوعان : الغزل والزهد . فمن أشهر المعشرات الغزلية معشرات ابن السيد البطليوسي[٣]، ومعشرات ابن حريق المخزومي[٤] ، ومعشرات ابن ميمون العبدري (- ٥٦٧هـ) التي كفّرها بمثلها في الزهد ، وشرحها في سفر ضخم[٥]. أما المعشرات الزهدية فمنها فضلاً عن معشرات العبدري معشرات أبي العباس الإقليشي[٦] (- ٥٥١هـ) ، ومعشرات أبي زيد الفازازي الذي له معشرات حبيّة فضلاً عن الزهدية[٧] ، وثمة معشرات لأبي الربيع الكلاعي لم يحدّد موضوعها[٨] ، وثمة معشرات في المديح النبوي

---

(١) انظر : نماذج من المسدسات في نفح الطيب ٤٧٠/٧-٤٨٨ .

(٢) ابن حريق البلنسي ، محمد بن شريفة ص ٨٤ .

(٣) ذكر محمد بن شريفة أن لديه مصورة من المعشرات الغزلية لابن السيد البطليوسي . انظر : ابن حريق البلنسي حياته وآثاره ، دراسة وتحقيق ، ط ١ . ١٩٩٦م حاشية رقم (٦٠) ص ٢٢ .

(٤) انظر : المراكشي . السفر الخامس من كتاب الذيل والتكملة . القسم الأول ص ٢٧٥، ٢٧٦ .

(٥) انظر : في معشرات العبدري وشرحه لها الذيل والتكملة ص ٥١١ .

(٦) انظر : الذيل والتكملة ٥٤٥/١ ونفح الطيب ٥٩٩/٢ .

(٧) انظر : الرعيني الإشبيلي . أبي الحسن علي بن محمد . برنامج شيوخ الرعيني . حققه : إبراهيم شبوح . دمشق ١٩٦٢م ، ص ١٠٢ .

(٨) انظر : برنامج شيوخ الرعيني ص ٦٧ .

منها معشرات لإبراهيم بن أبي بكر الأنصاري التلمساني (- ٦٩٠هـ) على أوزان العرب[١] .

ويلوح من استعراض نماذج من هذه الضروب الشعرية الجديدة افتقار معظمها إلى التجويد الفني ، وطغيان التكلف عليها ، والميل إلى إثبات المقدرة الفنية مما يضعها في مرتبة أدنى من الشعر العادي .

وبلغ الميل إلى التجديد العروضي ذروته في فن الموشح الذي كان الصورة الناضجة لمحاولات التجديد الأولية في الأوزان والقوافي ، والذي منح الأندلس تفرداً بالغاً في البناء العروضي فضلاً عن جوانب امتيازه وتمثيله للطابع الأندلسي الخالص .

تفرد الموشح الأندلسي بنظام خاص يقوم على التنويع في القوافي والتجديد في الأوزان ؛ إذ تتراوح القوافي فيه بين الاتفاق في الأقفال ، والتخالف في الأغصان ، وتقوم بذلك على التخالف بين قوافي الأقفال والأغصان . وجليٌّ مافي هذا من خروج على نظام القافية الموحدة في الشعر التقليدي[٢] . ولم يخرج الموشح على توحيد القافية فحسب ، بل خرج على نظام الأوزان المألوف . والحق أن التجديد في الأوزان عرفه الشعر العربي والأندلسي المحدثين قبل الموشح ؛ فقد جنح شعراء المذهب المحدث في المشرق إلى استخدام الأوزان الخفيفة والقصيرة مثل الرمل ، والمتقارب ، والمنسرح ، والوافر ، والمجتث ، كما مالوا إلى مجزوءات الأوزان كمجزوء الرمل والكامل ، والبسيط ، والرجز . وأتى هذا التجديد في الوزن استجابة لطبيعة الموضوعات التي نُظم عليها كوصف الطبيعة ، وحديث الخمر ، ومجالس الأنس والغزل ، كما وافقت حاجة الغناء واقتران الشعر بالتلحين هذه الأوزان القصيرة والخفيفة . وإذا كانت تلك سمة الشعر المحدث عموماً ، فقد امتاز بها في

---

(١) انظر : الإحاطة ٣٢٧/١ .

(٢) انظر : بناء الموشح في ابن سناء الملك ـ دار الطراز في عمل الموشحات ص ٢٥ .

الأندلس شعراء بعينهم غلب على شعرهم استخدام هذه الأوزان كالسميسر[1] . أما الموشح فخالف الشعر التقليدي في ابتعاده عن البحور ، والأوزان المألوفة ، وإيثاره الأوزان المهملة ، فقام الأندلسيون بتوليد أوزان كثيرة من الأعاريض المألوفة ، ومزجوا بين تفعيلات هذه الأوزان ، فاستخرجوا أوزاناً كثيرة جديدة لم تكن مألوفة أو مستخدمة قبلاً . لكنهم استعانوا بالألحان لتقريبها من أذن السامع[2] . وبذلك خرج الموشح على البحور الخليلية ، وامتاز بأوزان خاصة وعروض فريد ـ مع اشتقاقه من العروض العربي ـ فكان أبرز تجديد عروضي عرفه الشعر العربي القديم .

والحق أن هذا التجديد العروضي الذي أحدثه الموشح أثار مواقف متباينة من قبل العلماء والمؤلفين ، والنقاد الأندلسيين على امتداد تاريخ الشعر الأندلسي ترجحت بين الإعراض والقبول ، فازدراها نفر من المحافظين ، وأحجموا عن سوق نماذج منها في مؤلفاتهم ، وتحمس فريق من أنصار التجديد لها ، وفاخروا المشارقة بها ، وعدُّوها من أبرز مظاهر الإبداع الأندلسي . وعلى ذلك رأينا ابن عبد ربه وهو من أوائل من نظموا الموشحات كما يذكر مؤرخو الأدب[3] يعرض عن ذكر نصوص منها في كتابه (العقد) مع أنه أورد نماذج كثيرة من شعره مباهياً بها شعراء المشرق ، فكان من المتوقع أن يورد بعضاً من موشحاته ـ إن كانت له موشحات ـ أو موشحات سواه التي تفرد بها

---

(١) انظر : الكيلاني . دكتور حلمي ـ السميسر حياته وشعره . مؤتة للبحوث والدراسات ص ١٢٨ .

(٢) انظر : عصر الطوائف والمرابطين ص ٢٢٦، ٢٢٧ .

(٣) يشك بعض الدارسين في نظم ابن عبد ربه للموشح ، فينسب بعضهم نظم الموشح إلى ابن أخيه سعيد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد ربه . انظر : عوض الكريم : دكتور مصطفى ، فن التوشيح قدّم له دكتور شوقي ضيف . ط ١ ــ دار الثقافة ـ بيروت ١٩٥٩م ، ص ١١٢، ١١٣ ، وكذلك يشك دكتور محمد زكريا عناني في نظم ابن عبد ربه للموشح . انظر : الموشحات الأندلسية ـ سلسلة عالم المعرفة ـ الكويت ١٩٨٠م ص٧٧ .

الأندلسيون ، ويفاخر بها المشارقة . ومن اللافت للنظر أن ابن حزم الذي جهد في إبراز فضل الأندلس وجلاء وجهها المشرق ، وأفرد في ذلك رسالة شهيرة يغفل ذكر الموشحات أو الإشارة إليها ، والإشادة بها ملمحاً ساطعاً من ملامح فضل الأندلس ومجالي إبداعه الأدبي . وينحو الحميدي نحو ابن حزم في تجاهل فن التوشيح في جذوته مع الترجمة لبعض أعلامه كأبي عبادة بن ماء السماء ، والرمادي دون الإشارة إلى موشحاتهم أو إيراد شيء منها . أما ابن بسام فصرّح باستبعاده الموشحات من ذخيرته بسبب مخالفة عروضها لنظام العروض العربي المألوف فـ ((أوزانها خارجة عن غرض هذا الديوان ؛ إذ أكثرها على غير أعاريض أشعار العرب))[1] ، ولا تفوته الإشارة ـ في معرض ثنائه على لغة الموشح لدى محمد بن عبادة ابن القزاز ـ إلى خروج هذه الأوزان على النظام التقليدي للشعر العربي الذي اكتفى به في كتابه . يقول : ((فأما ألفاظه في هذه الأوزان فشاهدةٌ له بالتبريز والشفوف ، وتلك الأعاريض خارجة عن غرض هذا التصنيف))[2] وعلى ذلك فقد أورد القصائد التقليدية للوشاحين ، وأهمل موشحاتهم من مؤلفه . ومع هذا فلم يخف ابن بسام إعجابه بهذا الفن الجديد ، بل أخذ يزهو بأنّ صنعة التوشيح هي « التي نهج أهلُ الأندلس طريقتها ، ووضعوا حقيقتها))[3] ، وتغنى بأثر الموشحات البالغ في نفوس الأندلسيين إذ ((تُشقُّ على سماعها مصونات الجيوب بل القلوب))[4] مما يعزز أن جانب التجديد العروضي هو الذي حال بينه وبين إثباتها في مصنّفه مع الشعر المحافظ .

وتتبدى روح المحافظة لدى الفتح بن خاقان حين صنع صنيع ابن بسام ، فاستبعد الموشحات من كتابيه (قلائد العقيان) و (مطمح الأنفس) ، وأثبت قصائد الوشاحين التقليدية التي يرضى عنها أصحاب الذوق المحافظ . يقول مستهجناً هذا الضرب من النظم في ترجمته لأحد الوشاحين ، وهو أبو القاسم

---

(١) الذخيرة ١/١ : ٤٧٠ .
(٢) الذخيرة ١/٢ : ٨٠٢ .
(٣) الذخيرة ١/١ : ٤٦٩ .
(٤) الذخيرة ١/١ : ٤٦٩ .

المنيشي المعروف بعصا الأعمى لملازمته الأعمى التطيلي : ((ونكب عن المقطع الجزل إلى الفرض الفسل ، وليس من شرط كتابي إثبات بذائه ، ولا أن أقف حذاءه . وقد أثبتُّ له ماهو عندي نافق ، ولغرضي موافق))[1] . واقتفى عبد الواحد المراكشي سبيل سابقيه ، فاعتذر عن إثبات الموشحات في كتابه (المعجب) بسلطان العرف والعادة الذي ينكر إيرادها . يقول بعد إفصاحه عن الإعجاب بموشحات ابن زهر وشهادته له بالإجادة فيها : ((ولولا أن العادة لم تجر بإيراد الموشحات في الكتب المجلدة المخلّدة لأوردت له بعض مابقي على خاطري من ذلك))[2] .

والحق أن هؤلاء لاينطلقون في مواقفهم تلك من الموشح من علة خروجه على الأوزان التقليدية ، والقافية الموحدة فحسب ، بل أحجم العديد منهم عن إثبات الموشح في مؤلّفاتهم لأنهم رأوها فنًّا شعبيًّا يخالطه الهزل ، ويبتعد عن الجدية في الموضوعات ، وينأى عن الجزالة التي يقتضيها الشعر المحافظ . فضلاً عن ضعف تراكيبه . ومع هذا يلوح أن الباعث الأقوى والأبرز في تلك المواقف المتحرجة من فن التوشيح إنما هو شكله الفني الخارج عن المألوف في الوزن والقافية . مما أفقده صرامة الأدب الرسمي ذي الحدود الثابتة التي لاتقبل تساهلاً أو حيدة .

ومع هذا لم يكن هذا الموقف السلبي من الموشح عامًّا ، بل كان يقابله موقفٌ آخر قبل فن الموشح ، وأثبته في تصانيفه إلى جانب الشعر التقليدي بلا تحرج ، أو اعتذار ، أو تحفظ ؛ فقد وردت في (المطرب) لابن دحية (- ٦٣٣هـ) نماذج من نصوص الموشح وكذلك في (المغرب) و (المقتطف من أزاهر الطرف) لابن سعيد (- ٦٨٥هـ) ، وحشد المقري (١٠٤١هـ) في

---

(١) مطمح الأنفس ص ١٠٠ ، وورد اسم الشاعر فيه هكذا (أبو القاسم المتنبي) والصواب ماأوردناه .

(٢) مطمح الأنفس ص ١٤٦ .

كتابيه (نفح الطيب) و (أزهار الرياض) طرفاً عظيماً من نصوص الموشحات . بل أفرد نفر من المؤلفين كتباً خاصة بهذا الفن . منها (نزهة الأنفس وروضة التأنس في توشيح أهل الأندلس) لابن سعد الخير البلنسي (- ٥٧١هـ) ، وصنف لسان الدين بن الخطيب مؤلّفاً أسماه (جيش التوشيح) ، وكذلك صنف ابن بشري المتوفى في القرن التاسع فيها كتاباً كبيراً سماه (عدة الجليس) . بل إن العديد من الذين تحرجوا من إثبات الموشحات في مؤلفاتهم أفصحوا عن إعجابهم بهذا الفن ، واعتذروا عن إثبات نصوصه مجاراةً للعرف والمألوف ؛ فقد رأينا ابن بسام يفخر بأن مواطنيه الأندلسيين هم من ابتدع فن الموشحات ، ويترنم بسحرها الجارف وتأثيرها العظيم في الكيان الأندلسي ، ويشير إلى أن خروجها على الوزن العربي المألوف ثناه عن إثباتها في كتابه . وكذلك أعجب عبد الواحد المراكشي بموشحات ابن زهر واعتذر عن إيرادها مراعاةً للعرف السائد في التصنيف كما رأينا .

وهكذا قام محدثو الأندلسيين بخطوات جريئة في الخروج على النظام العروضي المحافظ للقصيدة العربية ، فجدّدوا في القوافي بنظم المزدوج ، والمخمسات ، والمسدسات ، والمعشرات ، وجدّدوا في الأوزان بإيثارهم الأوزان القصيرة والمهملة ، وكان الموشح المظهر الساطع لهذا التجديد في الوزن والقافية . مما أثار مواقف متباينة من قبل فريقي المحافظة والحداثة تراوحت بين التحفظ والقبول ، وترجحت بين الإنكار والإعجاب .

* * *